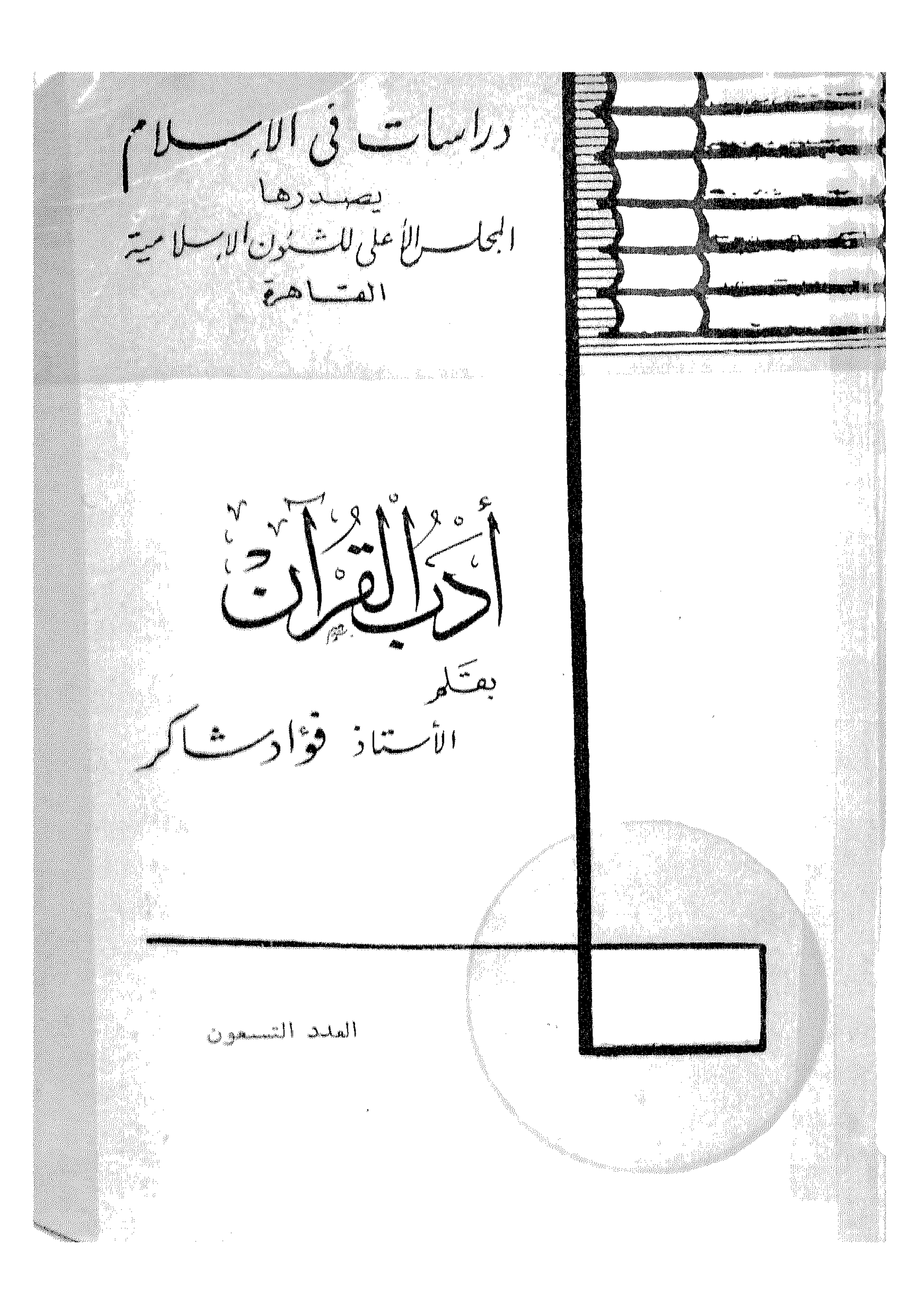
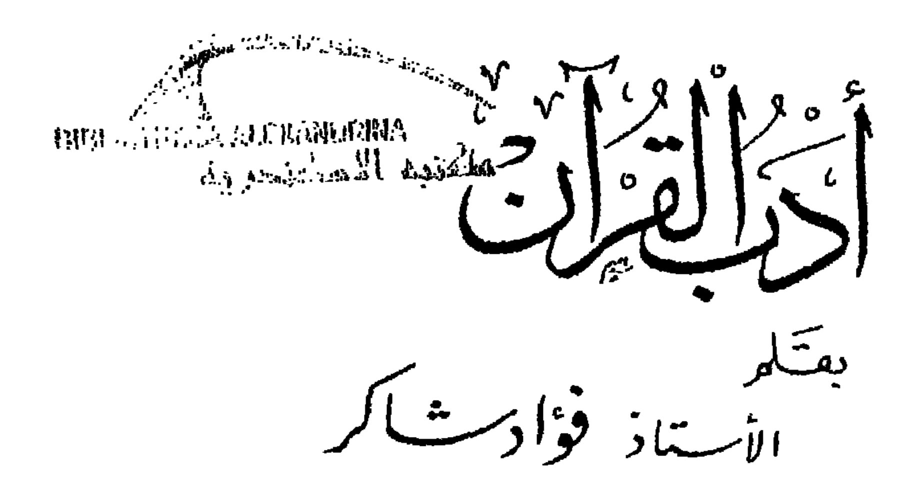

دراسات فى الاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
القاهرة
أدب القرآن
بقلم
الأستاذ فؤاد شاكر
العدد التسعون

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ محمد مصطفى بيومي
القاهرة

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



أدب القرآن

بقلم
الأستاذ فؤاد شاكر

((٩٠))
السنة الثامنة
١٥ من رمضان ١٣٨٨ هـ
٥ من ديسمبر ١٩٦٨ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »

صدق الله العظيم

تمهيد

أسباب تأليف هذا الكتاب — اتساع مذاهب البحث — أدب العلم وأدب النفس — الأحكام التشريعية فى القرآن — اغفال المسلمين لمصدر سعادتهم — القرآن مصدر سعادة البشر — تعريف السعادة والطريق الموصل اليها — آداب المسلمين فى حياتهم اليومية من القرآن — معاملاتهم الحقوقية .

ظن بعض أصدقائى ، الذين سمعوا بعنوان هذا الكتاب ، قبل قراءة موضوعه — أدب القرآن — اننى عنيت ببحث أدب العلم ، لا أدب النفس ، اذ من المفهوم أن كلمة الأدب تؤدى هذين المعينين ، كالتعبير الذى اصطلح عليه ، فادب العلم ،الذى هو علم الأدب ، غير أدب النفس ، الذى هو حلية النفس وطابعها فى مكارم الأخلاق ، وظنوا أننى عنيت ببحث أدب القرآن من ناحية العلوم الأدبية وفنونها فتعرضت لما فى القرآن من بلاغة وفصاحة ، ولغة ونحو ، وصرف وقواعد وما الى ذلك من ضروب البيان وأبوابه الواسعة ، فلما سئلت فى ذلك أجبت : بأن أدب

القرآن من هذه الناحية ، انما هو موضوع يهم الخاصة من رجال العلم والفضل ، والمتعلقين بالبحث والتمحيص ، للوقوف على ما في القرآن الكريم من بلاغة وفصاحة وبيان ، وما ورد فيه من غريب اللغة ومفرداتها وقواعدها ، فهو يهم من هذه الناحية طائفة خاصة من طبقات الناس بل من صفوة طبقاتهم المتعلمة التى تفهم معنى هذه الابحاث حق فهمها ، فالبحث اذا فى الموضوع من هذه الناحية المحدودة هو فى نظرى بحث محدود الفائدة بحدود قرائه وقلتهم فى كل أمة من الأمم العربية والاسلامية لانه من المفهوم أنه ليس كل الناس وليس سواد الشعوب وجمهرة الأمم من التعليم العالى بالدرجة التى تخول لهم فهم هذه الابحاث حق فهمها •

وبالتالى ، فان فصاحة القرآن الكريم وبلاغته ، وما فيه من ضروب البيان ، كل ذلك شيء تناقلته الالسنة وحفلت به المؤلفات وحفيت فيه أقلام الكتاب من فطاحل العلماء ، منذ العصر الذى نزل فيه القرآن الى اليوم ، فى كل أمة وكل زمان• فالكتابة فيه ليست بجديدة فى موضوعها ، وموضوعها ليس بمجهول من أولئك الجلة من العلماء المبرزين ، والفطاحل المؤلفين ، الذين عالجوا هذه الابحاث فى مؤلفات ضخمة حفلت بها المكاتب العربية وعرفت لجميع المتأدبين وتداولتها أيديهم وأبصارهم وأذهانهم •

وقد خلصت من هــذا الى تقرير : أن النــاحية العلمية فى القــرآن ، انما هى ناحيــة لا يفهمها — حق فهمها — الا تلك الطائفة الجليلة من العلماء ، من الذين يؤهلهم تعليمهم ومؤهلاتهم العلمية والذهنية الى استساغة معانيها وقواعدها .

أما الناحية الأخرى التى قصدت اليها من تأليف هذا الكتاب، فهى الناحية الأوسع انتشارا ، والتى يستطيع كل فرد متعــلم تعليما عاديا أن يفهمها ، والتى هى تهم كل فرد من أبناء البشر ، لأنها الناحية المتعلقة بالانسان فى حياته اليومية ، فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين والديه اللذين هما أقرب الناس اليــه ، وفيما بينه وبين ذوى قرباه وذوى رحمه ، وفيما بينه وبين الناس بصفة عامة ، وما يدخل فى ذلك من حقوق ومعاملات ، وآداب خاصة وعامة ، وشئون اجتماعية وأخلاقية ، وعمرانية واقتصادية وآداب الانسان فى معاشرة أهله ومعاشرة غيرهم من النــاس ممن تضطره ظروف الحياة وملابساتها الى الاحتــكاك بهم فى غدواته وروحاته .

بل لم يقتصر القرآن الــكريم على ذلك ، لتعــرض لأدق شئون الانسان فى حياته الخاصة ، كآداب الاستئذان فى الأسرة، وآداب الاســتئذان فى دخول البيــوت ، وآداب التفسح فى المجالس ، وما الى ذلك من الشئون الخاصة المتعلقة بأخــلاق الناس وآدابهم ، مما يجده القارىء مفصلا فى كتابنا هذا .

والقرآن الكريم أوسع من أن يحده بيان أو مؤلف أومؤلف . مهما أتسعت الصفحات وسمت المدارك وتنبهت العقول . وقد حفل بجميع شئون الخلق فى عباداتهم ، وفى معاملاتهم وفى جميع أحوالهم الخاصة والعامة كما أسلفت القول ، وبدا لى أن فى القرآن من هذه المواضيع جميعا ما لو حاولت تفصيله أو التعرض له بالاشارة لاستوعب منى مجلدات ضخمة وزمنا لا يحيط به العمر المحدود . علاوة على أن ذلك التفصيل بجملته يكون موضوعا عاما يخرج بى عن نطاق الفكرة التى حددتها فى تأليف هذا الكتاب ، أو على الأصح ، الفكرة التى بعثتنى على تأليفه بهذه الصورة .

فالأمة الاسلامية الصحيحة ، انما قامت فى حياتها العامة والخاصة ، على أساس القرآن الذى هو هاديها المرشد الى كل شأن جليل أو ضئيل من شئون حياتها . وقد كان الأمر كذلك فى فجر الاسلام وضحاه ، ونقول — فى فجر الاسلام وضحاه لأن كثيرا من الأمم الاسلامية تحللت بعض التحلل من بعض تعاليم القرآن والاسلام ومبادئها وأخذوا يعملون ويسيرون على قواعد عرفية وعقلية زعموا أنها ملائمة لعصورهم الحاضرة وما اقتضته من تطور ، وهم فى ذلك جد واهمين ، ففى فجر الاسلام وضحاه ، أى فى زمن الرسالة المحمدية وعهد الخلفاء الراشدين والصحابة ، كان القرآن هو القاموس الوحيد لمعاجم هذه الحياة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو مرجعهم فيه مدة

حياته . ثم كانت أحاديثه الصحيحة الثابتة ، مرجعهم بعد وفاته في أنظمة حياتهم ومعاملاتهم وشؤونهم من عامة وخاصة .

فالفكرة التي رمى اليها مؤلف هذا الكتاب ، هي انه نظر الى القرآن الكريم نظرة اجلال واكبار واحترام ، بعد أن اشربت نفسه حب القرآن وبعد أن وفقه الله الى دراسته دراسة عميقة ، والوقوف على كثير من معانيه السامية الحكيمة . وقد رأى المؤلف أن في القرآن الكريم من شتى المواضيع ما أصبح دستورا عاما للامم الاسلامية وأصبح نظاما حكوميا دينا ودنيا يجب أن تسير بموجبه الأمم الاسلامية وتطبقه الحكومات التي لها الولاية على المسلمين ، كأحكام القصاص واقامة حدود الله وتوزيع العدل بين الناس بواسطة الهيئات الحاكمة وشؤون التوريث وأمور النكاح وما الى ذلك من الأمور التي يرجع أمر تنفيذها الى السلطات الحاكمة . فلم يتعرض المؤلف لهذه الناحية من نواحي القرآن على اعتبار انها ناحية يرجع أمر تنفيذها عمليا الى الهيئات الحاكمة كما قلنا وهي مسائل تشريعية لم يعد أمرها خافيا على أحد من الناس لانها من قواعد دينهم الذي يسيرون عليه ، سواء عملوا بها أو لم يعملوا .

ورأى المؤلف في القرآن ناحية أخرى هي ناحية الفرائض والعبادات والأمور المتعلقة بطاعة العبد لربه كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وهذه الناحية لم يتعرض لها المؤلف لأن ماكتب في موضوعها قديما وحديثا لم يترك مجالا لكاتب أو لقائل ،

ولأن كل مسلم أصبح بفطرته أو بأبسط ما يتلقنه من القواعدأو المعلومات ، ملما بأركان دينه عارفا لها سواء عمل بها أو لم يعمل.

وانما الرأى الذى أخذ على المؤلف مذاهب تفكيره ، هـو انه استشف من أسرار القرآن ، الناحية التى يقرأها الناس ولا يلقون بالهم اليها ، وهى الناحية التى يمكن الاستفادة منهااستفادة عملية فى كل شئون الناس فى حياتهم اليومية ،وأعنى بها الناحية التى تتعلق بحياة الناس فى أعمالهم وعلاقاتهم ببعضهم وآدابهم العامة والخاصة ، ومكارم الأخلاق ومعامـلاتهم الأدبية والمادية وما يتعلق بالمحافظة على صحتهم وعلى ثروتهم وعلى سعادة الاسرة وعلاقات الآباء بالأبناء وعلاقاتهم بذوى قرباهم وتبـادل العطف والمحبة والمواساة بين بعضهم البعض ورفـع مستوى الأخـلاق وترقية حالتهم الاجتماعية والخلقية وكل ما يؤدى الى سعادتهم وهنائهم ورفاهيتهم.

هذه الناحية الاجتماعية الأخلاقية العمرانية ، التى هى أساس الحياة اليومية لكل الناس ، هى النـاحية التى ملكت مذاهب الرأى على المؤلف ، بعد أن استشف من قواعدها المرسومة فى القرآن ما ينهض بها الى أرفع أوج يشهد بعظمة الدين الاسلامى وينطق بعظمة القرآن وبأنه كتاب منزل من لدن الحكيم الخبير، الذى هو عالم بسر خلقه ، وبسر طريق السعادة التى هم عنها فى ضلال مبين ، وقد استهوت المؤلف هذه الفكرة ، فعمل جاهدا على اخراجها الى حيز الوجود ، وذلك باقتفاء الآيات الحـكيمة

التى حفل بها القرآن فى هذه المعانى ، وتقديمها الى القراء فى ثوب من البساطة يسهل معه فهمها ، وفهم الاغراض التى رمت اليه من اسعاد البشر ، فهو سبحانه وتعالى فى غنى عن عبـاده وعن عبادتهم والذبائح التى تذبح تقربا اليه لن يناله دماؤها ولا لحومها وانما هى مبادىء سامية ترمى الى تقرير أشرف الأغراض وأنبل الغايات .

وقد اتسعت مذاهب البحث وتشعبت مسالكه عـلى مؤلف هذا الكتاب عندما حاول اخراج فكرته من حيز التفكير الى حيز التنفيذ لأن النظريات تختلف عن العمليـات ، اذ اجتمعت لديه طائفة من آى الذكر الحكيم فى هذه المواضيع وفى المواضـيع المتصلة بها ما لو أراد مجاراة رغبته الملحة فى تتبعها وتقصيها ، ثم تتبع شروعها وتقصيها ، لنفد العمر دون الوصول الى غايته ، لغزارة البحث وسعته ، وعمقه ، وهنا لم يجد بدا من الاقتصار على ما وصل اليه جهده المحدود الضئيل مقتنعا بالمسـاهمة فى الدعوة الى الله بما أداه من واجب فى دائرة الحـد الذى وفق اليه ، مواصلا البحث فى الموضوع الذى هو بسبيله على ماتتبع له الحياة من مدى ، سائلا الله أن يلهمه التوفيق فيما هو فيـه من مواصلة الجهد لاكمال تحقيق الفكرة التى يعمل لاتمامها فى كتاب آخر يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وغاية ما أرجوه اذا ، هو أن أكون قد ساهمت فى الدعوة الى الله ، وانارة الطريق الى الحق ، وقيادة الناس الى سبيل سعادتهم

الدنيوية والدينية ، لانني شديد الاعتقاد ، بأن الناس لو اتبعوا أوامر دينهم وأحكام قرآنهم ، وما جاءهم فيه من الحق ، لساروا على النهج المؤدى بهم الى السعادة الكاملة التى ينشدونها وهى بين أيديهم ، فقد طالما كتب كتاب الشرق والغرب ، وبحثوا طويلا ، ووضعوا أثمن الجوائز وأغلاها لمن يدلهم على السعادة ولمن يعرفهم ما هى وأين طريقها . وقد كتبوا فى ذلك كثيرا وطويلا . وأكثر من خاض هذا الموضوع لم يوفق الى تعريف السعادة أو ما هو الطريق الموصل اليها .

أما تعريف السعادة فى رأى كاتب هذه السطور ، فهو أنها هى الحياة الطيبة المشمولة بهدوء البال فلا يكدر صفوها من الحوادث الانسانية مكدر ، كأن تكون متمتعا بالصحة الجيدة والمعيشة الهادئة آمنا من الخصومات بينك وبين غيرك من الناس على صلة طيبة بجميع من تحب ، حائزا لرضاء ربك وذويك فى بسطة من العيش . وهذه الامور لا يمكنك أن تتوفر على اقتنائها الا من طريق الدين ، وطريق الدين الذى نعنيه هو اطاعة أوامر ربك واتخاذ القرآن الكريم اماما لك ونبراسا تقتدى به وتهتدى بهداه ، فى كل ناحية من نواحى حياتك سواء العامة والخاصة وسواء الدينية منها أو الدنيوية ، فاذا انت فعلت ذلك بحق واخلاص ، واتبعت ما جاء فى القرآن بهذا الصدد ، أمكنك أن تصل الى طريق السعادة المنشودة وغيرك يتخبط فى طريقه ، يلتمس اليه النور فلا يعرف مصدره العظيم ، فكتاب أدب القرآن

اذا ، هو النبراس المضىء أمامك هذا الطريق ، بله نفسه الطريق المؤدى بك الى السعادة الحقيقية فى دنياك وآخرتك ، ولعلى حين أصف كتابى بهذا التعبير أكون قد مدحته فى نظر من يقرأون هذه الجملة : وليس من المتعارف أو المتواضع عليه أن يمتدح مؤلف نتاج فكره ، ولكننى فى الواقع أمتدح كتابى . بملء ماضغى فخرا وبكل ما فى من قوة ، وأدعو الله أن يثنينى عليه كل المثوبة ، وأن يهدى به خلقا كثيرا . وذلك لسمو موضوعه وسمو فكرته ، وانه مستمد من كلام الله سبحانه وتعالى ومن تعاليم دينه الحنيف ، وأوامر قرآنه الكريم ، وحسبه أنه « أدب القرآن » وكفى .

والله الموفق .

الباب الأول
في الشئون الأخلاقية

١ — النهى عن الظن السوء والغيبة

٢ — الأمر بالحسنى

٣ — تحريم السخرية والاستهزاء

٤ — النهى عن الغضب وما يجر اليه

٥ — مكارم الأخلاق

٦ — النهى عن شح النفس

النهى عن الظن السوء والغيبة

قال الله تعالى فى محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحـدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتا فكرهتمـوه . واتقـوا الله ان الله تواب رحيم » .

جاء فى تفسير هذه الآية ما يأتى :

يقول الله ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون اثما محضا ، فليتجنب كثير منـه احتياطا وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه قال « ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن الا خيرا وانت تجد لها فى الخير محملا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسناد عن مالك عن أبى الزناد عن الأعـرج عن أبى هـريرة « اياكم والظن فان الظن أكـذب الحديث و لاتجسسـوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولاتدابروا وكونوا عبادالله اخوانا » وقال الطبرانى باسناده عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لامتى : الطيرة والحسد وسوء الظن »

فقال رجل وما يذهبهن يارسول الله من هن فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « اذا حسدت فاستغفر واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض » ، وقال سفيان الثورى عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » (ولا تجسسوا) أى على بعضكم بعضا والتجسس غالبا يطلق فى الشر ومنه الجاسوس أما التحسس فيكون غالبا فى الخير كما

قال عز وجل اخبارا عن يعقوب انه قال (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) وقد يستعمل كل منهما فى الشر كما ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ولا تجسسوا ولا تحسسوا .. الخ » والتجسس البحث عن الشىء والتحسس الاستماع الى حديث القوم وهم له كارهون .

وقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » فيه نهى عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، قيل يارسول الله ما الغيبة ، قال (ذكرك أخاك بما يكره) قال أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال صلى الله عليه وسلم (ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) وجاء فى الاثر أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة رضى الله عنها للنبى بيدها — أى أنها قصيرة .... فقال النبى (اغتبتيها) والغيبة محرمة بالاجماع ولهذا شبهها الله تعالى بأكل لحم الميت وهذا من التنفير والتحذير منها كما

قال صلى الله عليه وسلم يصف العائد فى هبته انه (كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه) وثبت فى الصحاح وغيره انه قال صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع (ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا) وورد أيضا أنه قال : (كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه حسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم).

وقد وردت أحاديث كثيرة لا تحصى بأسانيد شتى فى مختلف كتب الاحاديث كلها فى موضوع الغيبة لا يتسع النطاق هنا لحصرها وسردها كما وردت أقوال مأثورة من كافة الصحابة والخلفاء الراشدين وغيرهم فى ذمها واستقباحها ، والآيةالقرآنية صريحة الدلالة على الغرض الذى يرمى اليه المشرع الأكبرسبحانه وتعالى من تحريم هذه الخلة الذميمة والنهى عنها واجتنابها لمافيه من الأذى الذى يحيق ببنى الانسان من وراء انتشارها وذيوعها بين الناس .

والواقع ان هذه الآية الكريمة نبهت الى كثير من الأشياء التى يتواتر وقوعها بين الناس فى كل لحظة من لحظات حياتهم ، والتى هى من أسباب الفتن بينهم والتنافر والبغضاء ، فأمر سبحانه وتعالى باجتناب كثير من الظن لأن بعض الظن اثم ونهى عن التجسس والاغتياب وجعل الغيبة مثل أكل لحم الميت مبالغة فى التنفير منها وتحقيرها والتحذير عنها ، فليتدبر المسلمون هذه المعانى السامية ان كانوا للحق متبعين .

الأمر بالحسنى

كثيرا ما تكون كلمة صغيرة ، سببا فى ايقاد نار عداوة وبغضاء بين فريقين متحابين ، أو بين فريقين متصادقين ، وذلك مشاهد وملموس فى كل مجتمع من المجتمعات العالمية ، بل لا نغالى اذا قلنا : رب كلمة أثارت حربا أو لجاجة سببت ضربا . وقد أثبتت الحوادث الجارية المتعاقبة بتعاقب الملوين وكر الجديدين ، ان كثيرا من مشاكل الافراد والجماعات أحدثتها كلمة نابية . أو لجاجة جافة ، ولم يقف الأمر عند حد الملاحاة والتراشق وانما يتعداه الى سفك الدماء وايجاد الضغائن وتوتر القلوب بالترة والبغضاء .

والقرآن الكريم ، عمل بما فيه من حكمة سامية على اجتناب هذا الداء من أصله ، لو التفت اليه المسلمون وعملوا به .

يقول الله تبارك وتعالى « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » .

وفى تفسير هذه الآية يقول المفسرون :

(يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله ، ان يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن

والكلمة الطيبة) فانهم ان لم يفعلوا ذلك نزغ الشيـطان بينهم وأخرج الكلام الى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ،ولهذا نهى أن يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدة فان الشيطان ينزغ في يده ، أي فربما أصابه بها وجاء في الحديث عن أبي هـريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال « لا يشيرن أحدكم الى أخيه بالسلاح فانه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار) .

وجاءت أحاديث أخرى في مثل هذا المعنى لا تعد ولا تحصى والخلاصة المستفادة من كلام الله ، ومن كلام نبيه الكريم ، ان الانسان يجب أن ينزع الى القول بالتى هى أحسن ، واستعمال المعروف مع الناس بدل العداوة والشحناء ، وتجنب السفه في الملاحاة التى لا تؤمن مغبتها ولا يتقى شرها .

فلو توفر الناس على اتباع هذه الحكمة الغالية ، لسـلكوا سبيلا من السبل المؤدية الى سعادتهم في دنياهم ، ذلك عـلاوة على مثوبة الله التى يجزى بها عباده المخلصين في كل عـمل من أعمال الاحسان فتجتمع لهم مغفرة الله ورضوانه وجزيل ثوابه ، مع سعادة الدنيا ومع صفاء الود وحسن المعاشرة بين الاخوان من أفراد وجماعات ودفع المكروه والعداوة بينهم .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »

تحريم السخرية

والاستهزاء والمنافسة بين الناس

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

هذه الآية الكريمة ، تتعلق بموضوع خطير يتناول الناس فى حياتهم اليومية ، وفى بيئاتهم المختلفة ، الكبار منهم والصغار الرجال منهم والنساء لأنه يمس ناحية من نواحى الأخلاق العامة الشائعة بينهم ، ويتناول ما يقع بينهم فى كل وقت ولحظة فكثيرا ما تكون السخرية أو الاستهزاء أو المنافسة أو اللمز ، سببا خطيرا من أسباب التباغض والتحامل والشقاق والشحناء ، بل سببا من أسباب الفتنة بين الناس ، وما تؤدى اليه الفتنة من شر مستطير .

فلنذكر ما جاء فى التفسير خاصا بهذه الآية ، قال المفسرون :

ينهى الله تعالى عن السخرية بالناس أى احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

انه قال (الكبر بطر الحق وغمص الناس — ويروى — وغمط الناس) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فانه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب اليه من الساخر منه المحتقر له ولهذا نزلت الآية فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء .

وقوله تعالى « ولاتلمزوا أنفسكم » أى لا تلمزوا الناس والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى « ويل لكل همزة لمزة » والهمز ما يكون بالفعل ، واللمز ما يكون بالقول . كما قال تعالى « هماز مشاء بنميم » أى يحتقر الناس ويهمزهم طاغيا عليهم ويمشى بينهم بالنميمة وهى اللمز بالمقال ولهذا قال « ولا تلمزوا أنفسكم » كما قال « ولا تقتلوا أنفسكم » أى لا يقتل بعضكم بعضا .

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما « ولا تلمزوا أنفسكم » أى لا يطعن بعضكم على بعض .

وقوله تعالى « ولا تنابزوا بالألقاب » أى لا تداعوا بالألقاب وهى التى يسوء الشخص سماعها .

وخلاصة هذه الآية الكريمة انها تحرم على الناس السخرية من بعضهم والاستهزاء ببعض ، وقد قال الشاعر :

ترى الرجـل الضعيف فتزدريه

وفى أثوابه أســــد هصــور

ويعجبك الطــرير فتزدهيــه

فيخلف ظنك الرجـل الطــرير

كما حرمت على الناس التنابز بالالقاب ولمز أنفسهم • فهل سمع الناس وهل وعوا •

النهى عن الغضب وما يجر اليـــه

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« والـكاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس ، والله يحب المحسنين » .

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة ما يأتى :

أى اذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه ، فـلم يعملوه وعفوا مع ذلك عمن أساء اليهم وقد ورد فى بعض الآثار «يقول الله تعالى : يابن آدم اذكرنى اذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك »

وقد ورد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « ليس الشديد بالصرعة (١) ولكن الشديد الذى يملك نفســه عند الغضب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما تعدون الصرعة فيكم) قلنا الذى لا تصرعه الرجال قال (ولـكن الذى يملك نفســه عنـد الغضب) وقال (الصرعة كل الصرعة الذى يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه)

وقال الامام أحمد حدثنا ابن نمير عن الاحنف بن قيس عن عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدى انه سأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقال يارسول اللهقل لى قولا ينفعنى وأقلل على لعلى أعيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تغضب) فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول لا تغضب •

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمنا وايمانا) •

والعافين عن الناس ، أى مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الأحوال ولذا قال (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات الاحسان •

هذا بعض ما ذكره المفسرون فى شرح الآية وبعض ماأوردوه من الأحاديث الكريمة فى النهى عن الغضب ، والأحاديث كثيرة•

أما فى الواقع المشاهد فان الغضب شعبة من الجنون وقطعة منه • فكم من الجرائم الدامية يرتكبها الشخص تحت تأثير الغضب وكم من الأفعال المخزية تصدر عن الانسان وهوفىحالة الغيظ حتى اذا ما هدأ وزالت عنه سورة الشر ، عاد فعض بنان الندم ألف مرة على ما فرط منه فى غضبه ، وقد يقع منه أحيانا بعض الأشياء التى لا يمكن تداركها ولا يصلحها الاعتذار •

ومهما أردنا أن نتوسع فى هذا الباب ، فانه لا يمكننا أن نحيط بمقدار الشرور الأثيمة التى يكون الغضب سببها الأول ، والباعث عليها ، ذلك بأن الكثرة الغالبة من جرائم المجتمع

الانسانى لو عمل لها احصاء دقيق لردت الى باعث واحد ، هـــو جموح النفس فى ثورتها وترك قيادتها لاهواء الشر حيث تطوح بها الى مالا يعلمه الا الله من العواقب الوخيمة السيئة •

وفى رأينا أنه لا يمكن أن يقع حادث سىء ترتكب فيه جناية أو معصية ، الا ونفس صاحبه تكون مشربة بالغضب فالانســان لا يرتكب عملا ادا الا اذا استفز اليه بأى دافع من الدوافع حسب أسبابه وظروفه وهذا الاستفزاز الذى قد تولده أى الأســباب هو نفسه الغضب أو الذى يوجد الغضب فى النفس فاذا وجــد ثار بالنفس وسول لها السوء وزين لها ما هى بسبيله من معصية أو اعتداء ، وذلك بخلاف ما اذا امتلك الانسان نفسه وراجعها وراضها ، وحملها عــلى كظم الغيظ فهناك تحمد المغبــة ويزن الانسان نفسه ويملك أعصابه فينظر الى ما هو واقــع بين يديه بنظر الحقيقة الصافية المجردة عن زخرف اغراء الغضب واغوائه ان صح هذا التعبير — ويثوب الى رشده فلا يقع فى محظور أو مكروه ولا يسىء ولا يساء •

ومن أكمل صفات مكارم الأخلاق بعد ذلك أن يعفو المقتدر، بعد أن يكظم غيظه ، لا أن يعفوا غير المقتدر ، لأن شرط العفو هو كما قال المتنبى :

كل حــلم أتى بغير اقتــدار
حجة لاجىء اليها اللئــام

مكارم الأخـلاق

يمدح الله بها نبيه

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في القرآن الكريم :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

آية قصيرة من القرآن بل جملة تتألف من أربع كلمات فقط . ولكنها تحوى فى مجموعها أكبر المعانى وأسماها ، وأجـدرها بالامعان والتقدير ، ونحن نجمل لك معناها فى ايجـاز ، لانه ليس من المستطاع ولا فى مجلد كهذا أن نعرض بالتفصيل لأخلاق سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم فالقرآن الكريم وصـفه اجمالا بأبلغ وصف جامع ، فقال : « وانك لعـلى خلق عظيم » وعائشة رضى الله عنها سئلت عن أخـلاق النبى فأجابت باجابة موجزة تتمثل فيها كل معنى البلاغة وتشتمل على كل ما يذهب اليه التفصيل من اسهاب ، أجل . لقد سئلت عائشـة عن أخلاق النبى ، فقالت انها « القرآن » وحسبك بهذه الاجابة .

قال الامام أحمد حدثنا أسود بسنده عن رجل من بنى سواد قال سألت عائشة عن خلق رسول الله ، فقالت أما تقرأ القـرآن « وانك لعلى خلق عظيم » قال قلت حـدثينى عن ذاك ، قالت صنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فقلت لجاريتى اذهبى

فان جاءت هى بالطعام فوضعته قبل فاطرحى الطعام ، قالت فجاءت بالطعام قالت فألقت فوقعت القصعة فانكسرت وكان نطع فجمعه رسول الله . الحديث .

وفى روايات كثيرة ان عائشة سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت هو القرآن ، ومعنى هذا انه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا وسجية وخلقا لطبعه فما أمره القرآن فعله وما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل كما ثبت فى الصحيحين عن أنس انه قال: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ولا شىء لم أفعله : ألا فعلته .

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئا قط الا أن يجاهد فى سبيل الله ولا خير بين شيئين قط الا كان أحبهما اليه أيسرهما ، حتى يكون اثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس من الاثم . ولا انتقم لنفسه من شىء يؤتى اليه الا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل ، وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان يقول « خياركم أحسنكم أخلاقا » وعنه انه قال « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وورد عن أنس قال كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه

اعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة ورجع النبى فى نحر الاعرابى حتى نظرت الى صفحة عاتق الرسول فاذا قد أثرت بها حاشية البردة ثم قال يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله ثم ضحك ثم أمر له بعطاء .

وعن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان أثقل شىء يوضع فى ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله تعالى يبغض الفاحش البذىء » وقال أيضا لأصحابه « أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان الفرج والفم . أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » .

وعن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » .

وخلاصة ما نختتم به هذا الباب ، أن مكارم الأخلاق هى أفضل تاج يضعه الانسان على رأسه بعد تاج الاسلام بل ان الاسلام قائم على مكارم الأخلاق كما هو ثابت من القرآن الكريم ، وحسبك أن تعلم أن أخلاق النبى الكريم التى مدحها الله ، انما هى أخلاق القرآن لأنه تأدب به ومنه . فليعتبر المعتبرون .

النهى عن شح النفس
وما يؤدى اليه

طبع الله سبحانه وتعالى النفس الانسانية على صور مختلفة من الغرائز فركب فيها الخير والشر ، ووهبها قبســا وهاجا بل شعلة نيرة كى تضىء بها المحجه . وتستوضح الســبل ، وقد قرن الله سبحانه وتعالى التكليف بذلك القبس الذى وهبه لعباده، فمن أتم عليه نعمته به الزمه بما الزم بهخلقه من العبادة والطاعة، ومن حرمه منه أسقط عنه الواجبات بسقوطه .

ونظن أن القارىء فى غنى عن أن نقــول له ان ذلك القبس الذى نشير اليه ، ليس هو ســوى « العقل » الذى أنعم الله به على عباده فجعلهم بنعمته يستطيعون التمييز بين الخير والشر ، وبين الضار والنافع ذلك العقل الذى يقول عنه سبحانه وتعــالى فى حديث قدسى « وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعــز منك ، بك آخذ وبك أعطى ، وبك أحاسب وبك أعاقب » .

ومن الصفات الانسانية ، أو بتعبير آخر من الغرائزالنفسية، غريزة الشح فى كل نفس ، فهى طبيعة أصلية فى الانسان تقابلها طبيعة الكرم ، وهاتان الغريزتان هما من الطباع الأصلية فىالنفس

البشرية وهما تتصارعان فى كل نفس فمن تكون لها الغلبة يكون لها الظهور والبروز ورجحان الكفة •

وغريزة الشح فى النفس ليست من غرائز الخير فى الانسان بل هى على العكس سبيل من سبل الشر والفساد ، وكثيرا ما يعانى المجتمع الانسانى من أهوائها الأهوال ، لذلك عنينا بأن نفرد لها بحثا خاصا كما عنى القرآن الكريم بالتنبيه اليها والتحذير منها • على أن القرآن الكريم أفاض فى الحديث عن التبذير والاسراف وكذلك فى الحديث عن البخل والامساك ، ولكنه أوضح بصفة خاصة هذه الغريزة بأن افرد للكلام عنها فقرة من فقراته وان شئت فقل آية من آياته البينات ، فقد قال سبحانه وتعالى :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

وقد سبق أن تقدم الكلام على البخل والامساك ، وعلى التبذير والاسراف ، بتفسير ما ورد بشأن تلك الخصال مما هو مثبت فى مكانه وانما أردنا هنا بالتحديد أن نتكلم عن الشح الذى ورد بالتخصيص فى هذه الآية ، فقد قال المفسرون بصددها ما يأتى :

قال أحمد ، حدثنا عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) •

وروى الأعمش وشعبة عن عبد الله بن عمر ، حديثا مثل هذا في المعنى وان كان يختلف في النص بعض الاختلاف .

وروى عن أبى هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد أبدا) . وروى عن أبى الهياج الأسدى قال كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول (اللهم قنى شح نفسى) لا يزيد فقلت له : فقال انى اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . واذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . وعن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة) .

هذه بعض الأقوال التى وردت في (الشح) وقد بقى علينا أن نذكر ما جاء في معنى هذه الكلمة لأنها كما قلنا لا تقف عند معنى البخل كما يظن البعض ، فالشح في لغة العرب البخل الشديد ومنع الفضل ، وقال ابن عمر ، ليس الشح أن يمنع الرجل ماله انما الشح أن تطمع عين الرجل الى ماليس له وقال سعيد بن جبير الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة ، وقيل الشح هو الحرص الشديد الذى يحمله على ارتكاب المحارم ، وقال ابن زيد (من لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه ، ولم يدعه الشح الى أن يمنع شيئا من شيء أمره الله ، فقد وقاه شح نفسه) .

هذا هو الشح عافاك الله وأقالك منه ، فانظر الى أية خلة ذميمة ينزل المتشح به ، والى أى درك عميق ينزل المتصف به .
وقد صدق الحديث الذى تقدم فى قوله « برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة » وكيف لا يكون كذلك أى وكيف لا يبرأ من الشح من تكون هذه خصاله ،وهى خصال ان لم تكن هى الكرم المحض فهى الوقاية من الشح ، وكلاهما على حد سواء .

وفى الواقع أن الشح بمعناه الذى ورد فى الآية ، أى معناه الصحيح المتعارف عليه ، انما هو خلة مذمومة مهينة تنزل بصاحبها الى الدرك الأسفل فى دنياه وآخرته وقد صدق القائل .

« أذل الحرص أعناق الرجال »

وليس كالشح خلة تحمل صاحبها على قبول المهانة ، والرضى بالدنيئة ان لم يتعدى الأمر ذلك الى اقتراف المحرمات واستباحة المنكرات لأن الشحيح والعياذ بالله ، يعميه شحه عن كل ماعداه، فهو يفرط فى كرامته ارضاء لشحه ويتسامح فى عرضه ارضاء لشحه ويستمرىء الموبقات ويستهين بالمخزيات والمنديات ، كل ذلك فى سبيل شحه الذى يزين له كل أولئك والعياذ بالله .
ومن هنا أفرد القرآن الكريم هذه الآية بالتخصيص على الشح والتوقى للتنبيه منه ، نسأل الله منه الوقاية والسلامة .

الباب الثاني
في الشئون الاجتماعية

١ — الخمر مبعث الجرائم .

٢ — أثر الشريعة فى قطع دابرة الجرائم .

٣ — السحر فى معتقدات العامة .

٤ — الأمر بالمعروف والنهى عن التفرق والاختلاف .

٥ — وجوب التثبت فى تصديق الأقوال ، وقصة بنى المصطلق .

٦ — الاستقامة من أسباب السعادة .

الخمــــر

أم الكبائر ومبعث الجرائم وفساد الأخلاق

تعب العالم من أقصاه الى أقصــاه ، فى معالجة مشــكلة الخمر ، وما تسببه من المشاكل بين الأفراد والجماعات ، وماتبعث عليه من الجرائم ، وما تبثه من فساد الأخلاق ، ولم تزل الأمم والحكومات ، قائمة قاعدة ، قلقة متحيرة ، فى بحث هذا المشكل الأخلاقى الاجتماعى العظيم ، وأكبر الظن أنها لن تزال كذلك الى أن تقوم الساعة ، لأن المرض الدفين ، يظل يزعج صاحبه عــلى الدوام حتى يحين استئصاله من أرومته ، والا فلن تجدى العلاجات والمسكنات ، الا بمقدار التخــدير المؤقت ، حتى اذا ما عاودت الصحوة ، عاودت معها الآلام والأوجاع .

هناك أمة من الأمم رأت أن تحرم الخمر وأمة أخرى رأت أن تخفف من حدتها بتحديد ساعات بيعها ، وغيرها اقترحت الحد من غلوائها بتنقيص وارداتها ومصنوعاتها ، وهناك غيرها وغيرها ، والحركة قائمة والضجيج مستمر ، والأنين مرتفــع ، والصراخ يدوى ، والتأوه يسد المسامع ، والتوجع يستطير بالألباب ، كل ذلك تذمرا من الخمر وما تبثه فى المجتمعات من شرور وآثام ،

وعربدة وارتكاب جرائم وفساد أخلاق ، وما يترتب على ذلك من اشغال القضاء وقيــام المحاكمات وبعث الخصــومات . وهناك مؤتمرات تعقد فى أكثر المدن والعواصم ، وشكاوى تتصــاعد الى أجواز الفضاء ، وتفكير تشتغل فيه الادمغة . كل ذلك للبحث عن وسيلة ويتقى بها شر الخمر ، ورفع مضارها وآثامها والخمرة فى الواقع المشاهد ، هى أم الكبائر ، سواء اعترفت القــوانين الوضعية بذلك أم لم تعترف ، وسواء اصطلحت على اباحتها أو على منعها . والعجب العجاب أن القــوانين الوضعية تبيحها ، وترخص بها وتعترف بآثامها ، وتسهل سبيل ورودها ثم تتذمر من شرورها . وتجنى النفقات الرابحــة من تجارتها ثم تصرف النفقات الباهظة على مسح آثار جرائمها . فما هذه المتناقضات ، وما هذا الداء العياء ، الذى أعيا نطس الأطباء ، من مفــكرى الأمم وقادتها ، وزعمائها ورجالات الرأى والــكلمة فيها ، وما هذه الحيرة كلها فى محاولة الاهتــداء الى عــلاج ناجع ، دون الوصول الى هذا العلاج ، أو الاهتداء الى بصيص من النــور يفرج تلك الكربة ، ويزيل ذلك الغم .

ان علاج هذه الحالة المؤلمة التى أدت بالمجتمع الانسانى الى تلك الكوارث ، هو عــلاج لا أقول انه بين ظهــرانينا ولا بين أيدينا ، بل هو أقرب الينا بكثير من تلك الأمثلة ، اذ هو أمــام أعيننا وهو فى مثل هذا الضوء القوى الساطع الذى نستنير به السبيل ، ولكنه ضوء قوى ساطع حقيقة ، ونظرا لقوته هذه فلا

يبصره الا قوى البصر سليم البصيرة ، أما ضعيفهما فيعشى بصره وتعشى بصيرته دون رؤياه ، والا فبماذا نفسر وجود علاج حاسم كهذا أمام الأبصار فلا تهتدى اليه العيون ، الا أن تكون قوة ضوئه أعشت عنه الأبصار — أعنى الأبصار الضعيفة — كما ذكرت .

ليتفضل القارئ وهو مأجور مشكور ، وليسألنى ما هو هذا العلاج الذى أعنيه ، والذى اشدت به ونوهت عنه . وأنا أجيبه به فى قوله تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما »

وفى آية أخرى : « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

اذن . ليس هناك من العلاج النافع ، والدواء الشافى غير الاستئصال والاجتثاث ، وليس هناك من السبل ما يؤدى الى راحة المجتمع الانسانى منها ، ووقايته من آثامها وشرورها ، غير تحريمها والرجوع الى أوامر القرآن فيها . على أن القرآن لم يعالج ناحية من نواحيها ، وهى ناحية المنع فقط ، دون الاشارة الى الناحية الأخرى ، ناحية الغنم منها ، بل عالج الوجهين فيها ، فقال ان فيها اثما كبيرا ومنافع للناس ، فاما ناحية الاثم ، فهى فى عصيان التحريم ، وفيما يترتب على هذا العصيان من ارتكاب

المحـــارم واقتراف الآثام ومـــزاولة الـــكبائر ، وكل ما تضـــج به المجتمعـــات العالميـــة التى تبيـــح الخمـــر وتشـــكو نتـــائج اباحتها ، وأما ناحية المنافع فهى ناحية أقل ضآلة من أن تقاس الى جانب تلك الآثام ، بل ان المنافع يصح أن تعتبر فردية بينما آثامها ومصائبها ، تعتبر آثاما عامة ومصائب جامعة ، فتاجر الخمر يربح منها والمتسبب فى تجارتها قد يثرى منها ، ولكن المضـــار التى تصيب المجتمـــع برمته من آثامها ومصـــائبها وشرورها ، والدماء التى تسفك فى سبيلها ومن أجلها ومن النتـــائج المترتبة عليها ، والانحطاط الذى يصيب ســـمعة الأمة من جراء انحطاط أخلاق المدمنين فيها : ذلك كله مالا يقدر بمال ، وما تفيـــد فى علاجها الأموال ، ومالا تدرأه أنفس نفائس الدر والجوهر ،ذلك الى جانب ما تنفقه الحكومات على جنودها ومحاكمها وقضـــاتها ومكاتبها من الذين يختصون بمحاكمة الجرائم التي تكون أمخرة سببها وعاملها الأول .

والقرآن الكريم ، حل هذه المشكلة بجرأة قلم كما يقولون، أو بآية صغيرة من محكم آياته التشريعية ، والناس يهملون هذا الحل ، ويبكون ثم يتباكون ويضجون ويعولون ، ويصـــيحون ويشكون ، ويوجدون الداء ويفتشون عن الدواء ، وهـــو فى متناول أيديهم وهم عنه لا غافلون بل متغافلون .

لم يبق غير خطتين ، لتتخير الأمم أنبلها وأقومها للســـبيل ، فهذه الخمرة مباحة بترخيصكم ورغبتكم ، ومعاقب على جرائمها

بل وعليها ذاتها فى أنظمتكم وقوانينكم ، فاما وقد أبحتموها ، أن تصطلحوا على فوائدها ومنافعها ، وتتواضعوا على ضرورتها لحياتكم ، وتنفوا عنها كل خبث وذم ، وتصفوهابانها أم الطيبات وترفعوا العقوبة عن جرائمها وآثامها ، وتعفوا الناس من عقوبة ما يرتكبون بسببها وفى سبيلها ومن آثارها ، فنحمد لكم هذه الصراحة ولو كانت خاطئة .

اما هذه الخطة ، واما خطة أخرى ، تقولون فيها أن الخمرة رجس من عمل الشيطان ، وتتواضعوا على تحريمها ، فتريحوا أنفسكم من عناء الاشتغال بجريرتها ، وتريحوا المجتمع الانسانى من مكابدة شرورها وآثامها وترحموا الانسانية من جرائمها وجناياتها ، وتبروا دينكم القويم باطاعته والعمل به .

سيقول السفهاء من الناس ، هذا كلام يصدق فى الخيال ولا يجرى مجرى الحقيقة لتعذر تنفيذه ، فأجيبكم بان عصركم لن يفضل العصر الذى نزل فيه هذا التحريم ، وأممكم ليست أشد من الأمم التى صدعت بأمر هذا التحريم .

ولى دينى ولكم دينكم والسلام .

أثر الشريعة فى قطع دابرة الجرائم

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى .. »

« ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .. »

تعبت الأمم ، فى معالجة هذا الموضوع الخطير ، تعبا أقض مضاجعها وافترش لأجسادها الهم والقتاد ، ونظرة سطحية بسيطة ، يلقيها الانسان على أخبار المجتمعات العامة ، وأنباء الصحف المختلفة ، يظهر له فى منتهى الوضوح والابانة ، الهوة السحيقة التى تنحدر اليها الحياة الانسانية ، والغور العميق الذى تنزلق فيه سعادة البشر ، والاخطار المفجعة التى تصيب الأخلاق العامة فى الصميم ، لا شك أن ذلك كله مبعثه شىء من التهاون فى اتباع أقوم السبل لتهذيب الحياة الانسانية وكبح جماح النفس البشرية ، ولقد اختط القرآن الكريم ، أقوم السبل التى تحوط سياج المجتمع من عبث العابثين وفساد المفسدين ، فقال تعالى فى محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من

ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » •

وهذه الآيات البينات ، تشتمل على كثير من معانى التشريع الالهى الذى يجب على الخليقة أن تتبعه وتصدع به • ولسنا الآن فى معرض تبيين طرق التشريع فى القرآن الكريم وأحكامه ، فالآيات كثيرة فى موضوعها ، وبعضها نسخ ببعض ، وانما أردنا أن نشير الى الحكمة الالهية الغالية التى وردت فى هذه الآية ، وهى قوله « كتب عليكم القصاص فى القتلى » ، ومعنى القصاص هو العدل ثم قوله ، « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »

أجل ان القصاص هو السياج الذى يحول بين الانسانية وبين الوحشية ولولا القصاص ، لتساوت البشرية والحيوانية كما أن أبسط تهاون فى تطبيق القصاص يؤدى الى مثل تلك الحالة من الفوضى ويجرد الانسانية من أغلى ما تعتز به من العدالة وعرفان الحقوق • والنفس أمارة بالسوء ، ان لم ترتدع عن غيها بوازع قوى من الخوف والسلطان ، قد تسترسل فى غوايتها الى الحد الذى يتعدى ضرره الى المخلوقات الأخرى والى محارم الله ، ومن هنا كانت فكرة العقوبة الرادعة لاصلاح المجتمع وصيانته • ولقد تكلم كثير من علماء الاجتماع ، وعلماء النفس وعلماء القوانين ، أقوالا كثيرة مختلفة فى تشديد العقوبة على المجرم أو عكسها اذ يعتبر بعضهم أن المجرم كالمريض يجب أخذه بالمعالجة والتطبيب حتى يبرأ من مرضه أو اجرامه ، ويعتبر بعضهم أن

المجرم كالعضو الفاسد فى الجسد السليم يجب بتره حتى يبرأ الجسم من أذاه • وكثر القال والقيل فى هذا الموضوع وكثرة استنزفت الشىء الكثير من المجهودات والتفكير ، مما لسنا بصدد استعراضه وانما ساقنا الاستطراد الى الاشارة اليه •

وفى رأينا أن سعادة المجتمع ضاعت بين أقوال هؤلاء ،وأقوال أولئك ، لأن العدالة المطلقة فى الدنيا ، انما هى شىء مربوط فى مخالب العنقاء ، أو مناط باعناق السعالى • وبحسبنا أن توجد العدالة النسبية فتخفف من شقاء الانسانية وآلامها •

أما لو أريد التماس العدالة الحقة التى لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها ، فما أقرب السبيل اليها ، وما أدناها منا ونحن عنها صادفون مشيحون • وهى بين أيدينا وتحت أبصارنا• أجل هذا هو القرآن الكريم ، وهذه آياته البينات ، وهو مصدر الحكم العظيمة التى تكفل للمجتمع سعادته فى كل ناحية من نواحى حياته اليومية ، وهذا الذى قصدنا الاشارة اليه فى الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » وقد قال فصحاء العرب (القتل آنفى للقتل) •

ويقول المفسرون أن المراد أن تشريع القصاص ، أى قتل القاتل يحتوى على حكمة عظيمة هى صيانة المهج والنفوس من الاعتداء لأن القاتل اذا علم أنه مأخوذ بدم المقتول ، أو على التحقيق اذا علم أنه مقتول بالقصاص ما أقدم على ارتكاب جريمته ، وانثنى عزمه عن القتل ، وبذلك تحققت حكمة ، ولكم فى القصاص حياة ، بصون حياة المقتول ودمه المطلول •

السحر فى معتقدات العـــــامة

حديث السحر والسحرة حديث ابتذلته السنة العامة وفاضت به معتقداتهم فى هذا الزمان ، وربما كان فى كل زمان ، وهــو خرافة منتشرة ، خصوصا فى طبقات معينة من الطبقات الدنيا فى كل أمة والمضار الاجتماعية والأخــلاقية التى تنشأ من وراء العقيدة فيه والايمان به ، والعمل باوهامه ، انما هى مضار تأصلت فى المجتمع العالمى ونالت من هنائه وسعادته قســطا كبيرا بحيث ترتب عليه كثير من الشقاء فى الأسر والمجتمعات .

وقد ورد فى القرآن قوله « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وقوله « فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله » .

ونحن نقول ان السحر فى هذا الزمان خرافة منتشرة ولا ننكر أن السحر علم من العلوم التى كانت معروفة بدليل ما ورد عنه فى القرآن من الآيات وما عرف عنه من القصص والأساطير ، وانما السبب الذى حملنا على أن نقول عنه انه خــرافة ، الجهل به فى هذا العصور المتاخرة وما يستغله بعض الدهاة من هــذا الجهل وادعاء العلم به ، والتغرير بعقول بعض البسطاء بايهامهم المقــدرة

عليه لابتزاز أموالهم والضحك منهم ، وسواء كان الذين يدعونه ويستعملونه ، يفعلون ذلك عن علم حقيقى به أو على سبيل الادعاء ومجرد الكذب ، فهو على كل حال حرام شرعا لما يترتب عليه من نتائج الأذى بين عباد الله ، والتى أشار اليها القرآن فى قوله . « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » .

والسحر وان كان فى الواقع من العلوم التى اعترف بها الا أنه شيء اختلف المفسرون والمتقدمون فى شرحه فقال قوم انه مبنى على مجرد الوهم والتخيل والايحاء وقال فريق آخر انه قوامه بعض الرقى والاسماء وقد وردت أقوال كثيرة منها ما هو غريب ومنها ما هو عجيب ولا نرى أن تتعرض لتلك الأقوال لأنه ليس من غرضنا أن تتقدم الى القراء بتعريف ما هو السحر وما هو أصله وما هى أغراضه ، ليس ذلك من همنا ذلك لأنه لا فائدة لهم من ورائه ولا يعنيهم فى كثير ولا قليل ، ولأن ما قيل فيه وكتب عنه شيء كثير جدا وحسبنا أن نشير الى الغرض الذى قصدنا اليه وهو تبيين أن السحر من المحرمات وانه يستعمل فى الايذاء والتنكيل وما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وان بعضهم يستعمله بسبيل الايهام والتغرير فى حين لا يكون هناك سحر ولا سحرة .

وادعاء السحر هو المشاكل الاجتماعية التى يعانيها العالم اليوم فى كثير من جهاته الهمجية منها والمتمدنة ، لأنه خرافة وجدت لها فى كثير من الأوساط اذهانا تقبلها واذهانا تروج لها

وأذهاناتعيش من ورائها وأذهانا تعتقد بها وهذه الأسباب مجتمعة الى جانب ما يشعر به الانسان من غريزة حب الاطلاع والاستكشاف واكتناء الغيوب الى جانب الأمور الخاصة والحالات التى تكون عليها بعض النفوس كمن له مسافر أوقريب مريض ، أو متطلع الى رزق أو عمل ، أو ما شاكل ذلك من حوائج الناس فى كل زمن وفى كل أمة . ذلك كله مجتمعا حمل الناس على الايمان بوجود السحر وبقيمته وترتب على ذلك وقوع مضرات فى المجتمع الانسانى ، أصابته فى كثير من نواحيه ، فبعضها فى الجانب الأخلاقى ، وبعضها فى الجانب الاجتماعى ، وبعضها فى غير هذين الجانبين فكم تهدمت بيوت بهذا الوهم وكم شتت أسر ، واريقت دماء وهتكت أخلاق وهو وهم غريب أكثر ما فيه من القوة انه وهم يصيب المتعرض له كما يصيبه المرض سواء بسواء .

والقرآن الكريم صريح العبارة فى الاشارة الى هذه المضار الكبيرة ، فى تلك الكلمة البليغة التى صور بها أساس الكيان الاجتماعى ، وكيف ينهار عند (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وكفى بهذه الجملة الصغيرة فى مبناها ، الكبيرة فى معناها ، واعظا ونذيرا لمن تدبر ووعى .

فلو أن الناس التفتوا الى كلام ربهم ووعوا ما جاء فيه من عظات وعبر ، لأراحوا أنفسهم من عناء المشكلات الاجتماعية

الخطيرة التى يجنــون آثامها ويترددون فى حمأتها ، ويضـــجون بالشكوى من بلائها وآلامها .

(فائدة) من أراد أن يطلع على ما ورد فى موضوع السحر والسحرة وتفسير الآيات القــرآنية التى وردت فيه ، فليراجــع تفسيرى الشيخين البغوى وابن كثير فى المجلد الأول من الصفحة ٤٢٨ الى ٢٧٠ حيث يجد ثمة الدواء الشـــافى الذى ينقع غلته ويشبع نهمته . والله أعلم .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

والنهى عن التفرق والاختلاف

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

يقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة — وهى الفريق من الناس ، منتصبة للقيام بأمر الله فى الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقال أبو جعفر الباقر ، قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتى » والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وان كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع

فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) وفى رواية وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ، وقال الامام أحمد بسنده عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم) .

والأحاديث كثيرة فى هذا الباب ، كما أن الآيات القرآنية التى حفلت بهذه المعانى السامية التى لا تحصى :

والله سبحانه وتعالى ينهى عن التفرقة والاختلاف لما فيهما من المضرة العظمى والمعصية الكبرى ، بالمجتمعات الانسانية ، وقد روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبى سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعنى الاهواء — كلها فى النار الا واحدة — وهى الجماعة — وانه سيخرج من أمتى أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الادخله) والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به .

من هذا الذى تقدم يتبين مقـــدار عناية القـــرآن الـــكريم والأحاديث النبوية بمسألة الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهما خلتان لا ينكر فضلهما فى تقـــويم الأخلاق البشرية والمجتمعات الانسانية ، وكذلك العناية بمسألة الائتلاف والنهى عن التفرق ، فليس بمجحـــود ما فى الجماعة من مصـــلحة عامة للجمهور بتوحيد كلمته والتوفيق بين قلوب أبنائه .

وجوب التثبت فى تصديق الأخبار
وقصة بنى المصطلق

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا ، ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

هذه آية من القرآن الحكيم ، يحسن بنا قبل أن تتعرض لتفسيرها أن نذكر شيئا من أهمية موضوعها . فهو فى نظرنا له من الأهمية والخطر فى حياة المجتمعات العامة ، وحياة الأسرة على الخصوص ، ما سنعالجه فيما يلى .

كثيرا ما يحدث بين الناس وبعضهم ، أن يتلقى أحدهم حديثا مفترى تنقله اليه ألسنة خاسئة ، يحمل فرية ذميمة ، فيتقبل ذلك الشخص ذلك الحديث كما يتلقى الوحى المنزل ، فاذا به ينقلب على عقبيه طائشا حانقا ، ساخطا غاضبا ، ويثور بالغضب على من ظنه صاحب تلك الفرية ولا يبعد أن يتماسكا أو أن يتطور بينهما الأمر الى شجار أو عراك ، وان شئت فقل سفك دم وانتهاك حرمة

واعتداء ، وقل فى كل ما يسوله الغضب للمرء من شرة وجنون ، والغضب شعبة من الجنون •

ولسنا نذهب مذهب ضرب الأمثال أو تخيل القصص اذا ما قلنا أن كثيرا من الحوادث الدامية التى تحز فى كبد المجتمع الانسانى ، والتى كثيرا ما تقوض البيوت وتثل الأسر ، ترجع فى مجموعها الى كلمات يدسها فاسق لا يرعى واجبا ولا انسانية، فتنتج له نتيجتها المطلوبة من الدس والتفريق ، ولسنا نذهب مذهب الغلو فى هذا الذى نقوله ، اذ أنه حقيقة واقعة يدركها كل انسان ويعرفها كل عاقل متمرس بشئون الحياة والمجتمعات العامة والخاصة ، ولقد درج بعض من لا خلاق لهم ممن لا يعرفون وازعا من دين أو مروءة ، الى اتخاذ هذه الخطة الحمقاء ، قاعدة خلقية يتخبطون فى بيداء دياجرها ، ويسيئون الى الانسانية أكبر اساءة بما يفعلون وهم لا يشعرون ، بل يشعرون ويتلذذون بارتكاب الجريمة استجابة لشرة النفس المتعطشة الى الدم الآسن

واذا شئت أن تعرف قيمة هذا المجرم الذى يتخذ من دماء الناس تجارة يثرى منها ، أو لهوا يتسلى به ، فلتعلم أن قيمته هى الفسوق والعياذ بالله فقد وصفه الله به كما ورد فى الآية الحكيمة التى نثبت تفسيرها فيما يلى :

قال المفسرون :

ان الله تعالى يأمر بالتثبيت فى خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون فى نفس الأمر كاذبا أو مخطئا فيكون الحاكم بقوله

قد اقتفى وراءه وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول أية رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر .

ولهذه الآية قصة يرد اليها سبب نزولها ، فقد قالوا روايات كثيرة فى موضوعها وأحسنها ما رواه الامام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار بن أبى ضرار والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين .

قال الامام أحمد :

حدثنا محمد بن سابق عن عيسى بن دينار حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعانى الى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى الى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله ارجع اليهم فادعوهم الى الاسلام وايتاء الزكاة فمن استجاب لى جمعت زكاته وترسل الى يارسول الله ابان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لى وقتا يرسل الى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ولا أرى حبس رسوله الا من سخطه فانطلقوا بنا نأتى اليه ، وبعث

رسول الله الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق (أى خاف) فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان الحارث قد منعنى الزكاة وأرادقتلى، فغضب رسول الله وبعث الى الحارث • واقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم الى من بعثتم • قالوا اليك ، قال ولم قالوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم انك منعته الزكاة وأردت قتله • قال رضى الله عنه لا والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله قال (منعت الزكاة وأردت قتل رسولى) • قال لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت الا حين احتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون سخطة من الله ورسوله قال فنزلت الآية « يأأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ » الى آخره •

وقد وردت روايات كثيرة فى هذه القصة ، وهى قصة بنى المصطلق ، ولكنها كلها فى مجموعها لا تخرج عن المعنى الذى أشرنا اليه ، وختمت أكثرها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم غضب من ذلك النبأ وكاد يهم بغزو بنى المصطلق لما بلغه عنهم من منع الزكاة ومحاولة قتل رسوله فنزلت الآية المتقدمة •

وانما أوردنا تفسير الآية بالنص ، والقصة التى كانت سبب نزولها لتزيد فى توضيح المعنى الذى ترمى اليه تلك الحكمة القرآنية السامية فى ضرورة تبين الأخبار قبل تصديقها ، لمايترتب عليها من خطورة فى حياة المجتمع وفى حياة الأفراد كما أشرنا اليه فى أول الكلام ، وحسبنا أن ننوه من ناحية أخرى بالمعنى الأدبى الدقيق الذى تشتمل عليه هذه الآية فوق المعنى الاجتماعى السامى الذى أشرنا اليه . وقديما قيل فى الأمثال العامة ، وما آفة الأنباء الا رواتها .

فليتأمل فى القرآن من يريد التأمل ، وليتدبره من يتدبروفوق كل ذى علم عليم .

الاستقامة من أسباب السعادة

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« وأن لو استقاموا عـلى الطـريقة لأسقيناهم ماء غـدقا لنفتنهم فيه » •

اختلفت أقوال المفسرين فى تفسير هذه الآية ، فقال بعضهم: وأن لو استقام القاسطون على طـريقة الاسلام وعـدلوا اليها واستمروا عليها « لأسقيناهم ماء غدقا » أى كثيرا والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنـوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وعلى هذا يكون معنى « لنفتنهم فيه » أى لنختبر من يستمر على الهـداية ومن يرتد الى الغـواية • وقال بعض المفسرين « وان لو استقاموا عـلى الطريقة » أى طريقة الضلالة •

وسواء كان هـذا أو ذاك ، فالشىء الذى لا شك فيـه أن الاستقامة باب من أبواب السعادة وسعة الرزق وأنها الطـريق

الموصل الى راحة الضمير وهدى الانسان ، وقد أمرنا الله بها في قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » والاستقامة على الطـريقة المثلى هى المعنية فى كلام الله ومعنى كمـا أمرت ، أى كما نزل عليك فى القرآن من التعليمات بالائتمار بأوامر الله تعالى والانتهاء بنواهيه . ولا شك أن اتباع الأوامر الالهية واجتناب محارم الله، هو معنى الاستقامة المنشـودة التى تؤدى بالانسـان الى طريق السعادة وسعة الرزق والى كل خير وفلاح .

الباب الثالث

في الشئون الصحية

١ ــ نظام الحجر الصحى فى القرآن .

٢ ــ اعتزال النساء فى المحيض

٣ ــ النظافة فى الاسلام

٤ ــ نظام فطام الطفل

نظـــام الحجر الصحى فى القرآن

أحدث ما ابتكرته أدمغة المفكرين ، فى العصور المتأخرة وفى أرقى الأمم ، فى حالات الأوبئة العامة ، التى تجتاح البلادوالعياذ بالله ، هو الحجر الصحى ، أو العزل ، أى عزل المريض أو المرضى فى مكانهم ، فلا يدخل اليهم أحد ، ولا يخرج من عندهم أحد ، وذلك تحديد للمرض ومنع من انتشاره وتسرب أوبائه .

(١) وقد يجهل بعض الناس ان هذا العزل بمعناه المتعارف عليه اليوم ، انما هو مأخوذ من القرآن أخذا صريحا لاشية فيه ولا مواربة ، وقد يظن بعض الناس ، أن هذا النظام من مبتكرات العصر الحاضر ومن تفكير أهله ورجاله ، وهم مخطئون فى هذا الظن ومعذورون بعدم وقوفهم على الحقائق التى اشتملت عليها أسرار القرآن الكريم .

ونحن لا نتعصب للقرآن لمجرد التعصب ، حين نرد اليه كل شىء ، ونهتدى بهداه فى كل شىء ، فانما نقول ما نقـول بأدلة هى آيات الله البينات بحيث لا ندع سبيلا للمواربة أو المكابرة .

«١» لم نجد للمتقدمين رأيا فى هذا الموضوع ، ولكن الغـرض من اثبـاته ان العزل الصحى هو راى ناضج وهو من الآراء السـديدة المتقـدمة التى لم تكن وليدة هذا العصر ، اما مسالة اثبات العدوى فقد تكلم عنها من المتقدمين الاعلام الشيخان ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من المحققين وقالوا انها تقع باذن الله ويتاولون حديث « لا عدوى » بانه نفي لما كان يعتقده العرب فى الجاهلية من تاثير العدوى بطبعها .

اما غرضنا من اثبات هذا الفصل ، فهو ايضاح سبق القرآن الكريم الى بيان فائدة العزل الصحى التى ادعى جهابذة هذا العصر انها من وضع اذهانهم وهي فى الحقيقة نعمة من نعم الاسلام .

يقول القرآن الكريم :

« ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » •

صدق الله العظيم ، ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون •

فلنرجع الى أقوال المفسرين فى هذا الموضوع •

اختلف المفسرون فى تحديد عدد هؤلاء القوم فقال ابن عباس انهم كانوا أربعة آلاف ، أو ثمانية آلاف وعن وهب بن منبه وأبى ملك انهم بضعة وثلاثون الفا وقال البعض انهم من قرية تسمى ذاوردان من واسط ، وقيل انهم من أهل اذرعات ، وأن بلدهم أصيبت بالطاعون ففروا منها وقالوا نخرج الى أرض ليس بها موت ، حتى اذا كانوا بموضع من الطريق قال الله لهم موتوا فماتوا ، فمر عليهم بعد حقبة من الزمن نبى من الانبياء فدعا ربه بالحياة لهم فأحياهم •

هذا هو التفسير الذى فسر به تلك الآية جماع المفسرين من السلف ، ثم جاء الحديث النبوى الصحيح الذى عمل به عمر بن الخطاب كما سنرويه فيما بعد ، يقول عن الوباء : « اذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » وتفصيل ذلك أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ،

خرج الى الشام حتى اذا كان بجهة تسمى « سرغ » لقيه من أمراء أجناده أبو عبيدة بن الجراح ، وأصحابه ، فأخبروه بان الوباء وقع بالشام فذكر الحديث ثم جاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا لبعض حاجته فأعاد على عمر ذلك الحديث النبوى الكريم فحمد الله عمر ، ثم انصرف ، وهو حديث ثابت فى الصحيحين .

من هذه الآية الكريمة ، ومن هذا الحديث الذى فسرها ، ومن هذا التصرف الذى تصرفه عمر بن الخطاب نستشف تقديرا لفهم معنى الآية والحديث ، ونستخرج أكبر عظة وأكبر عبرة .

ومن هذا يثبت بوضوح وجلاء ، أن نظرية الحجر الصحى ، أو العزل الصحى ، المعمول بها الآن فى أرقى الدول ، وأرقى الأمم ، والتى تعتبر من نتائج أدمغة رجال العصر الحديث ، انما هى حكمة الهية نزلت على نبى هذه الأمة منذ حوالى أربعة عشر قرنا من الزمان ، وقد عمل بها المسلمون فى ذلك العصر أى أنهم طبقوها عمليا بموجب هذه القصة الصحيحة الثابتة التى رويناها ، وبموجب ذلك الحديث النبوى الصحيح الذى رويناه .

فأى فضل لهذا الكتاب الالهى على العالم ، لا على المسلمين فحسب ، حيث انتفع بما جاء فيه من عظات وبما اشتمل عليه من أحكام أكثر الأمم الموجودة على وجه الأرض فى القرون الخالية

والحاضرة ، فهل قدر الناس لهذا الكتاب المبين قدره ، وهلا حفظوه فى المهج ، ودسوه فى شغاف القلوب واعتزوا به بين طيات الأرواح وأنزلوه من أنفسهم منزلة السمع والبصر .

لقد صدق أصدق القائلين ، فى قوله « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » كما صدق أصدق القائلين فى قوله « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

اعتزال النساء فى المحيض

« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » الآية .

هذه مسألة من الوجهة الأولى دينية ، فهى محرمة دينا ،ومن الوجهة الأخرى صحية ، فهى محرمة طبيا ، وليس لله منفعةتعود عليه اذا اعتزل الرجل نســاءه فى المحيض أو لم يعتزل ، ولكن الواقع أن عامة الناس فضلا عن خاصتهم عرفوا مضرة المحيض وعرفوا أنه أذى فتجنبوه .

فأما من الوجهة الدينية فالانسان المسلم الخالص العقيــدة يسلم لتحريمها تسليما مطلقا لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بعبــاده وأعلم بما ينفعهم وبما يضرهم ، وهم على هذه العقيدة ســلموا تسليما مطلقا بكل أوامره ونواهيه ، ولكن حدث أن الطب فى الاسلام وفى غير الاسلام عالج هذه المعضلة من ناحيته فاكتشف أن فيها من الفوائد مالا يحصى ، وأثبت الأطباء أن مخالطة المرأة فى المحيض — أعنى مباشرتهــا — تؤدى بالرجــل الى الموت المحقق ، بما تسببه له من أمراض وبيئة وبيلة ، أمــراض مؤلمة

معذبة ، وليس هذا الرأى مما يعوزه الدليل فهـو رأى الطب والأطباء فى كل مكان وفى كل أمة ، وهو شىء شائع مسلم به من الجميع • وما على الذين يجادلون فيه الا البحث والاستقصاء

بقى أن ننظر الى الموضوع من ناحيته الدينية ، لنرى الى أى حد من الشفقة والرحمة ، يسوقنا الدين ويحدب علينا •

فالموضوع كما قلنا ، لا يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وهو لا يتعلق بالدين الا من ناحية كـونه أمـر الهى تجب له الطاعة والعمل •

أما من ناحيته الأخرى ، فهو موضوع انسانى جليل ، فيه وقاية كبـرى لحيـاة النـاس وأجسـامهم من الأوجاع والآلام والأمراض فاذا تأملنا ذلك جد التأمل ، أمكننا أن نتأمل صـورة مصغرة لمثال من رحمة الله بعباده ، وعطفه عليهم بما يرشدهم اليه فى محكم كتابه العزيز من وسائل سعادتهم وهنائهم ، وما يدفع عنهم المكروه والشقاء ، ويجعلهم يعيشون فى حياتهم سـالمين معافين ، أو على الأقل متجنبين الأسباب التى تبعث عـلى شقاء الحياة وتكدير صفو هنائها بالأمراض والعلل •

والواقع أن الكتاب المحكم ملىء بكثير من الآيات البينات التى تهدى الانسان الى سواء السبيل ، وتشعره بالحدب عليه من قبل الذات العلية الالهية ، وفى كل أمر من أوامره ، ونهى من نواهيه ، حكمة قد تستطيع أذهاننا أحيانا أن تفقه أوجه النفـع

فيها ، وقد تكل أفهامنا فى الكثرة الغالية ، وتضل عن فهم معناها السامى أو مرماها البعيد ، وليس ذلك ذنب الآيات التى لم نفهمها ولكنه من موجبات قصور الفهم الانسانى ومحدوديته ، وليسمح لنا القارىء أن نستعير فى هذا الباب معنى المتنبى الشاعر المشهور فى قوله :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

النظافة فى الاسلام

الوضوء خمس مرات فى اليوم — الاغتسال كل يوم جمعة الاغتسال من الجنابة عند كل وطء — تغيير الثياب .

لا نظن أن هنـاك ديانة من الديانات ، تحتم النظافة عـلى معتنقيها كما يحتمها الاسلام على معتنقيه ، بل هو ذلك عـلى التحقيق . ويكفى فى هذا الباب أن نذكر من غير أدلة ولابراهين شروط النظـافة فى الاسـلام ، وهى كما يراها القارىء شروط أساسية لاسلام المسلم ، لأنه لا يمكن أن يكون مسلم من غيـر صلاة ولا عبادة ولا اطاعة أوامر الله ورسوله . فالاسـلام يلزم المسلم أن يؤدى خمس صلوات فى اليوم والليلة ، من الفجر الى العشاء . وفى هذا الوقت المحدود بطلوع الفجر وخلوص العشاء يتوضأ الانسان خمس مرات غالبا ، غير ما هو ملزم به الانسان فى السنة من أن يكون دائم الوضوء بما قد يزيد عـدد مرات الوضوء عن ذلك الرقم . واذا أردت أن تعرف ما هو الوضوء ، فاعلم انه نصف الاستحمام — ان صح هذا التعبير — لانه عبارة عن غسل اليدين والمضمضة والاستنشاق بالمبالغة لغير الصـائم

وغسل الوجه وغسل اليــدين الى المــرفقين ومسح الرأس بالماء وغسل الاذنين وغسل الرجلين الى الكعبين ، علاوة على ما يتقدم الوضوء من سنة السواك أو غسل الاسنان جيدا .

تصور أيها القارىء نظافة هذا الدين الذى يلزم صاحبه الزاما بأن يؤدى هذه العملية التطهيرية خمس مــرات فى كل يوم ، وخبرنى عن أى ديانة تفرض هذا على معتنقيها .

وليس هذا فقط . فهناك غسل الجنابة ، وهو الاغتسال كلما وطأ الرجل زوجته أو احتلم وهذا ما قد يقع فى كل يوم أحيانا أو مرتين فى الاسبوع أو مرة واحدة على الاقل . فيغتسل الرجل جميعه ويتطهر من الجنابة التى هذه مواقيتها عادة .

ولا تظن أن الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد تقول :والأعزب ما شأنه والدين لم يحمله على الاغتسال ، والجواب أسرع اليك من لمح الطرف فان الدين لم يفرط فى شىء ما ، فلا تنس ســنة الاغتسال يوم الجمعة فهى ليست خاصة بجنابة ولا بتطهير ، وانما هى عملية من أعمال النظافة يشترك فيها المتزوج والأعزب ، لأنها سنة الاغتسال يوم الجمعة وكفى .

فاذا أضفنا ذلك كله مجتمعا الى بعضه ، وهو الوضوء خمس مرات كل يوم والاغتسال فى كل يوم جمعــة كما هى الســنة والاغتسال من الجنابة كلما وقعت المباشرة أدركت ما قيمة النظافة فى نظر هذا الدين الاسلامى القيم الحنيف .

لقد جاء فى الاثر ما يأتى :

ويستحب لمن جاء الى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه اليها لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل) ولهما عن أبى سعيد رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم) وعن أبى هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده) ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر فالسواك أى غسل الأسنان بالسواك سنة ولا بأس من غسلها بما يشبهه مما يؤدى غرض نظافة الاسنان وتطهير الفم لوقايته من الأمراض وتنظيفه .

وهناك مسألة أخرى وهى مسألة تغيير الملابس المتسخة فقد يظن البعض أن الدين اغفلها ولم يقل فيها شيئا . ولكن اليك الحقيقة الصادعة .

فى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر (ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته) وعن عائشة

رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب الثمار فقال (ما على أحدكم ان وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته) والمفهوم أن المراد بذلك أن يغتسل الانسان فى كل جمعة وأن يغير ما عليه من ملابس مهنته التى تكون قد اتسخت من طوال أيام الأسبوع

هذا هو حكم الاسلام فى النظافة . وهذا حظها منه فليسمع ذلك من يريد أن يسمع ، وليعلمه من يريد أن يعلم .

نظام فطام الطفل في تعاليم القرآن

من أسرار الاعجاز القرآني الكريم ، وهـو الاعجاز الذي يبدو واضحا لذوي البصر والبصيرة ، تعرضه لمعالجةأدق شؤون الحياة الخاصة للافراد والاسر ، مما يزيد المؤمن ايمانا بأن هذا الكتاب منزل من لدن عزيز حكيم ، عليم باسرار خلقه وبصالحهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن تلك المسائل الدقيقة ، مسألة فطام الطفل الرضيع ،وهي في نظرنا مسألة هامة لانها تتعلق بجملة أمور منها العناية بصحة الطفل لذاته الانسانية ، ومنها العناية به بصفته عضوافيالمجموعة البشرية من حيث المحافظة على نمائها وازدهارها ، ومن وجهات أخرى يضيق النطاق عن شرحها بالتفصيل .

يقول القرآن الكريم « فان أرادا فصـالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

والقارىء البسيط ، لا يفهم لأول وهلة معنى هـذه الآية الحكيمة العظيمة ، فلننقل اليه تفسير المفسرين لها ليكون سريع

الاهتداء الى ضالته فقد جاء فى تفسير الشيخ ابن كثير لهــذه الآية ما يأتى بنصه :

(أى فان اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك واجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك ، فيؤخذمنه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لايكون ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر ، قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل والزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعبــاده حيث حجر عــلى الوالدين فى تربية طفلهما وارشدهما الى ما يصلحهما ويصلحه) •

وجاء فى تفسير البغوى مثل هذا التفسير وقال انالمشاورة هى استخراج الرأى (وتشاور) يعنى مشاورة أهل العلم بهحتى يخبرا أن الفطام فى ذلك الوقت لا يضر بالولد •

وقد عنينا بنقل نص أقوال المفسرين المتقدمين ، نصا حرفيا ، لنثبت بالبرهان القاطع حكمة القرآن الكريم فى هذه المســألة الاجتماعية الصحية الدقيقة ، وتعليقه أمر فطام هذا الطفل الصغير ـــ والفطام بالنسبة له شيء فاصل فى تاريخ حياته ، فقد يؤدى الى السلامة وقد يؤدى الى المرض فالموت ـــ تقول علق القرآن أمر الفصل فى هذه النقطة الحيوية الهامة فى حياة الطفل عــلى التراضى بين الوالدين والتراضى لا يكون الا بعد تفكير وتقدير، وبعد نظر ، والى المشاورة ، سواء مشاورة الوالدين فيمابينهما،

أو مشاورة ذوى الرأى والخبرة كما ورد فى التفسير . وتنفيذ ما يستقر عليه الرأى الصائب فى هذا الموضوع .

وثمة ناحية دقيقة أخرى ، نحب أن نلمع اليها ، ونحب أن ندفع بها الذين يقولون أن الاسلام جعل المرأة المسلمة كمية مهملة لا رأى لها ولا قيمة ، نحب أن ندمغهم بهذا النص الصريح الذى علق أمر الفصل فى مسألة خطيرة هامة على شيئين ، أولهما التراضى فى قوله تعالى « عن تراض منهما » ومفهوم أن التراضى أو الاتفاق على موضوع معين ، لا يتم الا بعد تفكير واجتهاد ، والشىء الثانى ، الذى علق عليه أمر الفصل فى هذا الموضوع الهام هو التشاور ، بين الوالدين أى بين المرأة والرجل ، والتشاور لا يكون الا بأعمال الرأى واجتهاد الفكر ، فالقرآن الكريم بصائب حكمته أبى أن يجعل الفصل فى هذه المسألة الخطيرة الهامة ، من حق واحد دون الآخر من والدى الطفل ، بل توسع أكثر من ذلك بضرورة المشاورة ، فقد يحتمل أن يكون التراضى متعلقا بذات شخصى الوالدين دون غيرهما ، ولكن معنى المشاورة يحتمل ادخال ذوى الرأى والخبرة فى الموضوع الخاص باستشارتهما حتى يقضيا ويقضى المتشاورون بما هو فى مصلحة الطفل ، كما يؤخذ ذلك من نص الآية ومن أقوال المفسرين التى أوردناها .

والقرآن لم يغفل بعد ذلك مسألة أخرى متصلة بهذا الموضوع فى آية أخرى ، وهى آية كريمة تبيح ارضاع الطفل من المرضعات

اذا تعسر لبن أمه أو أرادت فطامه طلبا للنسل أو لغير ذلك من الأسباب المشروعــة وبين ما يجب نحو المرضــعات من اعطائهن أجورهن ومعاملتهن بالمعروف وغير ذلك مما هو واجب فى عنق الانسان ومما هو فى غير حاجة الى تعريف أو تنويه •

فليتأمل الانسان الحصيف ، روعة ما اشــتمل عليه القرآن من الحكم النفيسة الثمينة وهو يقضى فى مواضيع لها خطورتها بالنسبة لحياة المجتمع الانسانى وكيف قطع السبيل على كل فساد يخشى تسربه الى سياج الحياة الانسانية •

الباب الرابع

فى الآداب العامة

١ — آداب الاستئذان قبل دخول البيوت .

٢ — آداب الاستئذان فى الأسرة .

٣ — آداب المجالس العامة .

آداب الاستئذان فى دخول البيوت
وآداب التحية

قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » .

يقول المفسرون فى تفسير هذه الآية ما يأتى :

(هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك فى الاستئذان . أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاث مرات فان اذن له والا انصرف) .

وظاهر الآية واضح الدلالة على المعنى الذى ترمى اليه ، وهو النهى عن الدخول الى البيوت من غير استئذان ، وقد أشبع المفسرون من السلف الصالح هذا التفسير بحثا ، فقالوا ان المراد منه هو وضع آداب دقيقة عالية لنظام الاستئذان فقد ورد فى

الأحاديث وأقوال الثقاة من الائمة ان الرجل لا يجوز له أن يدخل بيتا غير بيته الا بعد أن يستأذن أهله فى الدخـول فان أذن له بدأهم بالسـلام قبل كل شىء أى قبـل الـكلام . ومن آداب الاستئذان كما ورد فى الأحاديث انه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفى رواية ليلا يتخونهم ، يعنى لا يتهجم حتى على أهـل بيته لئلا يلقاهم على حالة يكره أن يراهم فيها أو يكرهـون أن يكونوا عليها ، وكذلك وجب الاستئذان فى الدخول على الامهات والاخوات لئلا يكن فى عورة ساعة الدخول) .

ولقد قيد الله عباده بهذه الآداب الأخلاقية لأن فى اتباعهـا الوصول الى السعادة التامة وتجنب كل سبيل شائك من سـبل المضرات الاجتماعية المؤذية التى قد تؤذن والعيـاذ بالله بالدمار وخراب البيوت وتقويض الاسر والعائلات ، فالمعروف عقلا أن الرجل فى خلوته والمرأة فى خلوتها قد يجنحان الى ما تقضـيه هذه الخلوة من الاستراحة المطلقة فاذا بوغت أحدهما وهو على هذه الحالة بغريب متهجم قد تقع من الحوادث ما لاتحمد عقباها علاوة على ما فى ذلك من المنافاة للادب والأخلاق .

فالقرآن الكريم قد حل هذه المعضلة حلا عادلا كـريما بما أمر به من الاستئذان ، حيث دفع به مضرة وحقق منفعة : فليتدبر المفكرون هذه الآراء الحكيمة السديدة ، نفعنا الله بتفهمها والعمل بهـا .

آداب الاستئذان فى الاسرة

مثال من الأدب الرفيع

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

اشتملت هذه الآية على معان رفيعة فى الأدب الاجتماعى والأخلاق العالية ، لم تصل اليه أرقى الأدمغة المفكرة فى هذه العصور ، ولا عجب فى ذلك فهذا كلام الخالق فأنى يصل اليه كلام المخلوق ، والحكم التى تضمنها حكم موحى بها من لدن عليم خبير ، لا من تفكير أشخاص أو عمل مخلوقين .

لقد أوحى التفكير الى بعض الذين زعموا أن عقولهم بلغت أقصى مراحل النضوج والذكاء ، أن يصنعوا شيئا من مثل هذا النظام الأدبى فى مجتمعاتهم ، ولكنهم اخفقوا كل الاخفاق فى

الوصول من ورائه الى نتيجة حكيمة كهذه التى أشار بها القرآن، ولو اختصروا على أنفسهم السبيل ، وعملوا بمعنى الآية لكفوا أنفسهم مؤونة الجد والاجتهاد فى غير طائل فكثير من النـــاس يضعون لأنفسهم فى أعمالهم ومكاتبهم ، أو فى بيوتهم ومساكنهم أنظمة للاستئذان ، وذلك جميل فى ذاته اذ أنه يحمل معنى من معانى الأدب والأخلاق ، ولكن عدم التقيد فى حالة كهذه بنظام اجتماعى دقيق كالذى أشار اليه القرآن لا يفضى الى النتيجـــة المطلوبة المنشودة .

يقول المفسرون فى صدد هذه الآية الحكيمة ما يأتى :

« هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، فأمر الله عبـــاده أن يستأذنهم خـــدامهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال ، (الأولى) من قبل صلاة الغداة لأن الناس اذ ذاك يكونون نياما فى فراشهم (والثانية) حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، أى فى وقت القيلولة لأن الانسان فى تلك الحالة قد يضع ثيابه مع أهله (والثالثة) ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت النوم الطبيعى فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال لما يخشى أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الحـــالات الخاصة ، ولهذا قال « ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » أى اذا دخلوا فى غير هذه الأحوال لأنه قد أذن لهم فى الدخول ولأنهم طوافون عليـــكم فى الخدمة وغير ذلك ،

ويغتفر فى الطوافين مالا يغتفر فى غيرهم ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الهرة « انها ليست بنجسة انها من الطوافين عليكم والطوافات » •

وظاهر الآية ، وظاهر التفسير واضح الدلالة على أن المقصود منها هو مراعاة الآداب الشخصية فى منزل الرجل وبين أسرته ، أى فيما يخصه بشخصه وفيما يخصه فى أسرته حيث أمر الله سبحانه وتعالى بالاستئذان فى الحالات التى هى مظنة العورات وهى حالات واقعة تمام الوقوع فمن ذا الذى ينكر أن الانسان حين يكون فى فراشه قبل صلاة الفجر ، وحين يخلع ثيابه فى الظهيرة للقيلولة ، وحين يستعد للنوم بعد العشاء ، انما يكون عورة من العورات ، وموضع ستر واستئذان .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بأرفع مثل لنظام الاستئذان مع ايراد ملاحظة دقيقة وهى أن هذا الاذن جعل على الذين لم يبلغوا الحلم ممن هم فى معية الرجل من أسرته وعلى خدمه الذين هم طوافون عليه ، أما الأجانب عنه ، فلهم حكم آخر غير هذا الحكم أى أن هذا الاستئذان خاص بخدمه ومن هم فى معولته ومن هم معه فى بيته •

آداب المجــالس العــامة

الامر بالتفسح بين الجلوس

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« يا أيها الذين آمنــوا اذا قيل لكم تفســحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفــع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

قال المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الحكيمة أنها نزلت فى يوم جمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئــذ فى الصفة وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجــرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السلام عليك أيهــا النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ثم سلمــوا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا عــلى أرجلهم ينتظرون أن يوســع لهم فعرف النبى ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من المهاجرين والانصار من غير أهل بدر،

قم يا فلان وأنت يافلان فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والانصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبى صلى الله عليه وسلم الكراهة فى وجوههم فقال (رحم الله رجلا يفسح لأخيه) فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لأخوانهم .

نقول : وهذا الذى ذكره القرآن الكريم وشرع فيه انما هو سر من أسرار المجتمعات العامة وما يقع فيها ، وكلنا نعلم أن كثيرا ما تكون جماعات منا فى حضرة رجل عظيم أو شخصية فذة ، فيدخل عليها جماعات أخرى فتضن الأولى بمكانها وتستأثر بما كانت فيه من الغبطة بقرب ذلك العظيم والدنو من مجلسه وتمتلك الانانية نفوسهم فيودون ان لو لم يكن أحد من الناس دخل عليهم فعكر على ذلك الاجتماع ، صفوا ما كانوا يحبون الاسترسال فيه من هناء واستمتاع .

وهذه عادة من عادات النفوس الكامنة فى غريزتها ، وهى مشاهدة ملحوظة ، والقرآن الكريم حين يقضى فيها بأدب حكيم كهذا ، انما يقضى فى مشكلة من المشاكل الاجتماعية التى تخلف فى نفوس الناس البغضاء والتنافس ، كما أن القصة التى ذكرناها فى سبب نزول الآية ، تمثل ذلك الواقع أبلغ تمثيل ، وتمثل

فضل هذا الرأى الذى سرعان ما أزال من نفوس القوم ما اضطروا النبى الكريم الى اتخاذه من اجراء سريع يستدفع به حرج الموقف بين الجالسين عنده والقادمين عليهم .

فلو اتبع الناس هذا السنن القويم ، والرأى الحكيم ، لقضوا من تلقاء أنفسهم على عادة من أسوأ العادات ولأراحوا ضمائرهم من عناء التشاحن والبغضاء فى أمور بين القرآن لهم سبل الراحة فيها . فليفقه ذلك من يريد أن يفقه ومن فتح الله على سمعه وبصره .

الباب الخامس
في الشئون الخيرية والإنسانية

١ ـــ أنواع البر وشعب الاحسان .

٢ — بر الوالدين وطاعتهما .

٣ ـــ الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير .

انواع البر وتنظيم الاحسان

القرآن الكريم يدلنا على شعب البر بانواعه
« وآتى المال على حبه ، ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » .

اجتهد المفكرون فى كل أمة ، فى تنظيم سبل الاحسان ، وتحديد شعب البر ، وقد تضارب اجتهادهم فى هذا الصدد وتفاوتت سبلهم،بحيث أصاب بعضهم أهداف هذا الغرض الانسانى الجليل ، وأخطأه كثيرون ، بل أخطأته الكثرة الساحقة منهم ،وقد وردت فى القرآن الكريم آيات لا تحصى فى هذا الموضوع العظيم الخطير علاوة على ما فرضه الله تعالى من حق للفقراء على الأغنياء حقا منظما صريحا بايتاء الزكاة .

وهذه الآية التى تنظم الاحسان ، وتبين شعب البر، هى آية واضحة بعيدة المغزى ، تقول :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى

المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمســاكين وابن الســبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة ، والمـوفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » •

هذا هو نص الآية الكريمة ، أثبتناه ليتصور منه القــارىء الكريم طائفة كبيرة من وجوه البر وشعب الاحسان ومنــاهج مكارم الأخلاق والاستعانة على أمور الدنيا والحض عــلى اتباع السبل المؤدية لسعادة الانسان •

وابرز ما يتجلى فى هذا النص الحكيم ، هــو الترغيب فى مزيد المعونة من قبل المقتدرين على المحتاجين ، ولكن بأيهم تبدأ ان وجوه البر كغيرها من الشؤون الأخرى ، متعددة المسالك ، متشعبة الطرق ولا شك أن التــوفيق الى تنظيمها ، توفيق الى اصابة الهدف المقصود الذى يصيب الفائدة المرجــوة وتحقيق الغاية المتوخاة ، والعكس بالعكس •

وقد بينت هذه الآية سبل تنظيم الاحسان بيانا واضحاشافيا فبدأت بذوى القربى ، وهذا رأى لا يحتاج صوابه الى تدليل ، والاقوال والأمثلة فى ذلك كثيرة لا تحصى ، ثم اليتامى وهم أحق الناس بالرعاية والاحسان بعد ذوى القربى ، ثم المساكين • وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة امام تفسير هذه الكلمة لنر الى الغرض الشريف المقصود منها ، فقد اختلفت أقوال المفسرين فيها ، فقال

بعضهم أن المساكين هم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قـوتهم وسكناهم وكسوتهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطـواف ، الذى ترده التمـرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » .

ذلك بان الناس ، تواضعوا فى اصـطلاحهم ، على اعتبـار المسكين كل فقير سائل يحتاج الى الصدقة والاحسـان ، ونسوا وراءهم من هو أجدر بمعونة المسلمين وحسنة المحسنين من أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم أبلغ وصف وأسماه ، فى قـوله تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » وهم الذين وصـفهم هـذا الحـديث النبوى الكريم بأنهم « الذى لا يجد غنيا يغنيه ، ولا يفطن اليه . فيتصدق عليه » .

فالقرآن الكريم ، أوضح فى أجلى بيان . درجات الاحسان والمستحقين له ، بصورة تكفل السعادة لجميع طبقات البشر . وتكفل للمحسن اصابة الهدف الذى قصد اليه بتوصيل احسانه الى مستحقيه على حسب درجـة عوزهم ، وترتيب حاجتهم الى الاحسان .

أما الصنف العادى من المساكين والشحاذين المعروفين فى كل جهة وكل مكان ، فأولئك هم الذين عنتهم الآية الكريمة بالسائلين

فقد قال المفسرون ان السائلين هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكاة والصدقات . « وابن السبيل » جاء فى التفسير أن المقصود به المسافر المجتاز الذى فرغت نفقته فيعطى ما يوصله الى بلده والذى يريد سفرا فى طاعة فيعطى ما يوصله الى بلده ، والمعنى فى جملته يدل على فريق من الناس يكون منقطعا عن أهله أو بلده كالغريب وما الى ذلك وهذه شفقة من الله على عباده ورحمة به من المستضعفين منهم ، الذين يكونون فى حاجة الى الاحسان أيا كان وفى أية صورة من صوره .

(وفى الرقاب) قال المفسرون أنهم المكاتبون الذين لايجدون ما يؤدونه فى كتابتهم ، وقال بعضهم أنه يدخل فى هذا المعنى عتق النسمة وفك الرقبة وفداء الاسارى وما هو من هذا القبيل.

والخلاصة أن هذه الآية الجامعة من القرآن ، اشتملت كما قلنا على أبلغ مثال فى تنظيم الاحسان وتوجيه شعب البر الى ما هو جدير منها بالاقبال والاحسان ، كما اشتملت على أبلغ مثل فى مكارم الأخلاق حيث جاء فيها « والموفون بعهدهم اذاعاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس وقد مدح الله سبحانه وتعالى المتصفين بهذه الصفات فقال جل شأنه « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

بر الوالدين

طغت على أخلاق هذا العصر ، موجة قوية من الفجور جعلت بعض الأبنـاء ينظرون الى آبائهم وأمهـاتهم نظـرات الاحتقار والازدراء ، بل تعدى الأمر ذلك الحد الى حد أبعد منه امعانا فى سوء الخلق والعياذ بالله ، بحيث يقع التعدى من كثير من الأبناء العاقين على والديهم ، وهذا التعدى يكون أحيانا بالسباب البذىء وأحيانا أخرى بالضرب ، والضرب المؤلم الموجع ، وأحيانا ثالثة يكون بالاعتداء الدموى كالقتل ومحاولته وما أشبه ذلك ، نعوذ بالله منه كل العياذ .

لا تكاد الانسانية فى أبشع مظاهر همجيتها ، تتصـور أن مولودا يضرب والديه ، ولانعتقد أن الانسانية فى أبشع مظاهر همجيتها ، تبيح لمولود ، كائنا ما كان ، ومهما أدت الأسباب ، أن يعتدى على والديه اللذين ولداه بالشتم والضرب ، فما بالك بالقتل واسالة الدماء .

فاستمع رعاك الله الى ما يقوله القرآن الكريم ، فى هـذا المعنى من الآيات الصريحة البينة ، وقبل أن نورد شيئا منها نذكر

اننا لا يمكننا أن نحصى جميع الآيات التى وردت فى الحض على بر الوالدين والنهى عن الاساءة اليها بأبسط صور الاساءة .

قال الله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا امايبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهـرهما وقل لهما قولاً كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

ونظن أن القارىء الحصيف يدرك قبل كل شىء كون أن الله تعالى قرن بر الوالدين بافراده بالعبادة ، هذه نقطة هامة خطيرة فى تبيين أهمية بر الوالدين وقيمته المعنوية كقوله تعالى فى آية أخرى « ان اشكر لى ولوالديك الى المصير » وننتقل بالقارىء بعد هذه النقطة الى ما يليها وهو الأمر بالاحسـان الى الوالدين بحيث ترتبت على ذلك شرعية الاحسان اليهما ووجوبه امايبلغن عندك الكبر ، وبعد ذلك يأتى الأمر بأن لا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، ونظن أن التأفف هو أبسط معانى الاساءة وقد نهى الانسان عن أن يوجه الى والديه أبسط معانى الاساءة التى هى التأفف وأمر أن يقول لهما قـولا كريما أى لينـا طيبا حسنا بتأدب وتوقير عظيم كما ورد فى التفسير .

يظن بعض الأبناء العاقين أن الوالدين حين يكبران وتتقدم بهما السن يجب أن يصدعا بأمر مولودهما العـاقل الرزين ويجب أن يكونا مخرفين فى نظره وأن يكون العقل وسـلامة التفكير له وحده ، وفى هذا الكثير من الجهل والغباء وسوء الادراك وقد حل القرآن الكريم هذه المشكلة العائلية الاجتماعية بهذا الحـل الشريف الذى لو اتبعه الناس فى مغداهم ومراحهم لاستراحوا ولكن هيهات فما يتبصر الا أولو الألباب .

الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير

قال الله فى كتابه الكريم :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » •

تقدم الكلام على وجوب الصدقات والزكاة وسائر شعب البر والاحسان ، ولكن القرآن الكريم أفاض فى التنبيه الى هذا الموضوع افاضة عميقة تدل على قيمته للمجتمع الانسانى ومقدار فائدته منها •

وقال المفسرون ان الضمير يرجع فى حبه الى الله تعالى أى فى حب الله سبحانه • لدلالة السياق عليه وقالوا ان الضمير عائد الى الطعام أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم له وشهوتهم اليه ، كقوله تعالى « وآتى المال على حبه » وقوله « ان تنالوا البر حتى تنفقوا » •

وروى البيهقى عن نافع ، قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبا أول ما جاء العنب فأرسلت امرأته فاشترت عنقودا بدرهم فأتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل : السائل • فقال ابن عمر

اعطوه اياه . فأرسلت فاشترت بدرهم آخر فأتبع الرسول السائل فلما دخل به قال : السائل فقال اعطوه اياه فاعطوه اياه .فأرسلت زوجته الى السائل فقالت : ان عدت لاتصيب منه خيرا أبدا ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به .

قال « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فأما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك ، أنه الأسير من أهل القبلة . وقال ابن عباس كان اسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الاسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء وقال عكرمة هم العبيد واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك وهكذا قال سعيد ابن جبير وعطاء والحسن وقتادة . وقد وصى النبى صلى الله عليه وسلم بالاحسان الى الارقاء فى غير ما حديث حتى أنه آخر ما أوصى به أن جعل يقول « الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

وخلاصة الآية وما ورد من الأحاديث النبوية فى معناها ، تبين فضل الاحسان الى المسكين واليتيم والأسير وقد تقدم الكلام فى شعب البر على من يجب عليهم الاحسان من المساكين والسائلين وأبناء السبيل والايتام ولكن هذه الآية زاد فيها الاحسان الى الأسير ، وهو صنف من الناس ، تعوزه الرحمة والشفقة والاحسان لأنه فى ذل الأسر ومحنته ، ومسكنة الذل وفاقته ، فانظر الى القرآن الكريم كيف حافظ على كل ما يشتمل على سعادة الانسان ورفاهية الانسانية فى كل ناحية من النواحى

الباب السادس

فى فنون الحرب والقتال

١ — منع الاعتداء فى القتال .

٢ — مبادىء الاسلام فى السلم والحرب .

٣ — درس فى السياسة من القرآن .

منع الاعتـــداء فى القتـــال

أوامر الهية صريحة من نص القرآن

تفنن علماء الغرب ، فى ايجاد شتى وســائل الســعادة لبنى الانسان وهذه مخترعاتهم العلمية المفيدة تنطق بذلك وهى ليست مجهولة بحاجة الى تعريف ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ما اخترع من أنواع المواصلات ، فى البر والبحر والجو ، ومن وسائل الاتصال البرق اللاسلكى والهوائى الذى يطوى المسافات الشاسعة فى سرعة الضوء أو بتعبير آخر ، فى لمح البصر .

أجل تفنن علماء الانسانية فى كل هذه الخيرات وأكثر منها، لصالح الانسانية ولخدمتها ولسعادتها فهم حقيقيون بكل تقدير ، جديرون بكل ثناء .

ولكن مهلا رويدا .

أجل مهلا رويدا فانه شكر ممزوج بالألم وثناء تغمره الحسرة والأنين .

أعرنى سمعك أيها القارىء عافاك الله وكتب لك السلامة ، ولا تغفل عما ســألقيه عليك ، ولأنتقل بك الى ميــادين القتال

الأوربية فاشهدك فيها ، ما تصطك له أسنانك من الرعب ، وترتعد له فرائصك من الاشفاق ، أشهدك الانسانية البريئة كيف تصرع ، أشهدك الأمومة كيف تفجع ، ولا عليك بعد ذلك من دعوى العلم والعلماء من العمل لخير الانسانية وسعادتها : أشهدك ما ينسيك رفاهية المدنية ، ويبطل أمامك حجة دعواها ، بحيث أحملك على التصديق بأن هذه المخترعات وقد كشرت عن أنيابها انما تجلت عن أصل طبيعتها ، وطبيعة العمل الذى اخترعت من أجله ، وهو مجرد الدمار والخراب ، والايذاء والتنكيل • ولك أن تتصور قسوة العواطف التى تلقى بالمهلكات الجهنمية والعياذ بالله ، على أطفال رضع ، أو شيوخ هجع ، على زوجات وأمهات وبنين وبنات ، واخوان وآباء ، وأهل وأصدقاء ، فجأة وبغتة ، بغير ذنب البتة سوى ورود هذه الضحايا على طريق أولئك الظالمين ، عفوا ، كما ترد أسماء الأعلام فى طريق القوافى • فاذا سألت ما هذا • قيل تلك هى المدنية فى أنبل معانيها ، تريد تمدين هذا الشعب ، أو ترقية تلك الأمة ، ورحمة الله على المنطق رحمة واسعة حيث دفن فى رمسه ، وقبر فى جدثه •

هذا الموجز المختصر ، هو الذى يقع بين أسماعنا وأبصارنا بين كل يوم وآخر ، خصوصا فى الأوقات التى نشطت فيها الحروب بين الأمم القوية والضعيفة ، وما تواردت به مختلف الأنباء الرسمية عن أعداد الضحايا من الرعايا الأبرياء الآمنين •

لقد أسمعتك أيها القارىء ، دعوى المدنية فى هذا الموقف بل أشهدتك حقيقتها الملموسة بما لا سبيل معه الى النكران ، وما لا حاجة به الى الدليل ، فتفضل غير مأمور وعد معى لأسمعك رأى الاسلام فى هذه النقطة الحساسة المتوقدة ، وأشهدك من القرآن الكريم أبلغ مثل وأعلاه ، ولك أن تفاضل بعد ذلك بين المدنية الدامية ، والجهالة الوادعة ، وتخير لنفسك أنبل الخطتين، وأقوم السبيلين .

ويقول القرآن الكريم :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وليس من غرضنا أن نفسر الأمر بالقتال فى أول الآية ، وانما الذى عنانا فى موضوعنا ، هو الشطر الثانى منها ، وقوله تعالى صراحة وبصيغة النهى الواضح « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وان كان هذا لا يمنع من أن نذكر على سبيل الفائدة، أن أقوال المفسرين اختلفت فى شرح هذه الآية حيث قال بعضهم بأنها أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان الرسول يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه ، حتى نزلت سورة براءة فنسخت هذه الآية بآية أخرى هى « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال بعض المفسرين ان المراد فى قوله « الذين يقاتلونكم » انما هو تهيج واغراء بالاعداء وقد تواردت الآيات الكثيرة فى هذا المعنى .

ونرجع الى ما نحن بصدده فى تفسير قوله تعالى « ولاتعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » فنقول أن المعنى ظاهر الوضــوح من النهى عن الاعتداء فى أول الآية ثم زيادة التبغيض فيه بقوله انه لا يحب المعتدين ، وقد زادت الاحاديث النبوية فى تفسير هذا المعنى وتكريه الاعتداء فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله :

(اغزوا فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع) رواه الامام أحمد ومن هذه المناهى ما ذكره الحسن البصرى من المثلة والغلول وقتل النســاء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتــال فيهم ، والرهبان وأصــحاب الصــوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

يستخلص من نص الآية الكريمة ، وهــو نص واضح كما ذكرنا ، ويستخلص من نص الأحاديث النبوية الواردة فى هــذا المعنى ، ومن أقوال الشراح والمفسرين ، يستخلص من ذلك كله الاجماع على استنكار الاعتداء فى الحروب وليس بعد كلام الله تعالى مجال للقول ولا محل للاستشهاد .

نسوق هذا الحديث الى أنصــار الانســانية الذين وقفوا أدمغتهم على اسعادها ، وحبسوا تفكيرهم على هنائها ، ولننظر بعد ذلك الى أى منقلب ينقلبون ..

مبادىء الاسلام فى السلم والحرب

فى مساجلة بين كاتبين : مسيحى ومسلم

وفيما نحن بسبيل تأليف هذا الكتاب ، عثرنا علـى المقالين الآتيين أحدهما كتبه كاتب مسيحى فى مجلة الرسـالة الغراء ، والآخر كتبه أديب مسلم فى عدد آخر من تلك المجلة ، يساجل به زميـله الأول ، وكـلاهما يرمى الى فكرة متحـدة ، ونظرية مشتركة هى تمجيد آداب الاسلام وتعاليمه والاشارة الى انه دين سلم لا دين حرب ، وانه غزا العالم بتعاليمه وآدابه قبل أن يغزوهم بسيفه ، وانه لم ينتض الحسام الا مضطرا بعد أن أعجز فى السلم وأبلى فى المناظرة .

وقد رأينا ان موضوع المقالين له مساس أى مساس بموضوع كتابنا لاتحاد الغـاية واشتراك الفـكرة فلم نر بدا من اشراك القراء فى تلك الثمرة العقلية الموفقة التى تزيدنا تأييدا فيما نحن بصدده من تمجيد كتاب الله الحكيم ودينه القويم .

المقـال الاول

« .. أنا لست مسلما ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أقول فى الاسلام الحق . ولقد دفعنى الى هذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين ـــ عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجـورين — من أن الاسلام دين كاذب قام على السيف .

وأصارحك أنى كنت على هذا الرأى حتى تنبهت الى فضائل الاسلام .

طريق الرسالة الغراء ، ثم عن طريق القرآن الشريف . لذلك آليت على نفسى أن أعوض عن عدم اسلامى بنشر الاسلام بقلمى ولسانى » .

خليل جمعة الطوال

« الاسلام دين بربرى قام بقوة السيف »
« فولتير والخصوم »

بهذه الحجة الواهية ينثال على الاسلام خصومه ليشـــوهوا جماله ، وينالوا من روحه الكبرى ، وينتقصوا من تعاليمه السامية وبهذه الحجة أيضا يتـــذرع أهل الجهالة والزيـــغ ، اذ يصمون

صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة ، ويدعو مؤسس ديانة بربرية كاذبة تنافى مبادئها روح الحضارة ، تعاليمها حائلا دون تقدم المدنية . ولو أنهم خلوا الى أنفسهم ، ونفضوا عنها غبار التعصب ، ودرسوا تعاليم الاسلام ، وتدبروا آياته فى هـدأة من أغراضهم الذاتية ، لانجابت عن بصـائرهم سدف الأرجاف ، ولانجـلى عن قلوبهم خبث الصدور وصـدأ الباطل .

يزعمون أن الاسلام قام بقوة السيف .. ويتمسكون بهـذا الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها . ولكن فاتهم أن القوة التى أعزت الاسلام فى بدر ، والقادسية واليرموك ، والتى غزا بها المسلمون ـــ على قلة عددهم وضعف عدتهم وعتـادهم ــ العالم ؛ وأمعنوا فى جهـاته الأربع بالفتح والاسـتعمار ، حتى وسعت امبراطوريتهم ثلثى الكرة الارضية ـــ لم تكن الا قـوة ايمانهم بعقيدتهم الجديدة ، عقيدة التوحيد بالله وعـدم الشرك به ، تلك العقيدة استمرأوا فى سبيلها النكبات ، وتجشـموا الأخطار والمصائب ، فما لانت قناتهم ، ولا خضـدت شـوكتهم ولا هانت قوتهم ولئن قام الاسلام ببضعة أسياف ونفر من الرجال لقد قاومه أعداؤه المشركون بآلاف الصوارم ، وكتائب الأبطال. وما انتصاره عليهم الا انتصار الحق على الباطل ، وما هزيمتهم الا هزيمة القوة المادية أمام قوة الايمان الروحية .

تبارك الله .. رجل يقوم ضد أمة ، فكأنه بقوة ايمانه — وهى كل ذخيرته — أمة بأسرها . فيغلبها حينا وتغالبه أحيانا ، ثم ينصر الله عبده ، ويعز كلمته ، فاذا القوم يسارعون فرادى وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه ، وليسترشدوا بنوره ، ويهتدوا بهدايته ، واذا محمد رسول الله ، ورجل الحق ، وعدو الكفر يقف فيهم خطيبا عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الاخاء والحرية والمساواة ، فيقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

الا كل مأثرة أو دم أو مال فهو تحت قدمى هاتين الا سدنة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش . ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب . يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم .

تلك هى مبادىء الاسلام السامية التى اهتزت لها أصنام الوثنية وهياكلها ، بل تلك هى عدة المسلمين التى فتحوا بها العالم والتى لم تغن عنها « يوم بدر جيوشهم اللجبة الجرارة وأسلحتهم الوفيرة المدمرة بمثل هذه المبادى قام الاسلام يرشد الناس بنور الهداية وحسن الموعظة ولم يلجأ الى السيف الا دفاعا عن حوزته ، واشفاقا على رسالته ، من أى تصبح مضغة استخفاف يلوكها أهل الكفر والالحاد مدى العمر . وان شريعة سماوية جديدة قامت ولم يؤيدها السيف فى انتشارها . أهى اليهودية وقد كانت تأمر

برجم كل خارج على الناموس .. أم هى المسيحية وما زالت محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها فى الآذان وترتعد من فظائعها الأبدان . ولم نذهب بعيدا فى الاستدلال والتاريخ مفعم يذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية — أو قل على الاصح انكشارية المسيحية — ومجازرها . وحسبك منها مجزرة القديس (سان برثلمو) التى قتل فيها ٢٥٠٠٠ نفس ومجزرة شارلمان بقبائل السكسون التى سالت فيها الدماء البريئة أنهارا ، وما ارتكبته جيوش فيليب الثانى ملك أسبانيا وحامى ذمار الكاثوليكية فى هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التى تهتز لهولها الرواسى ، وتشيب لمنظرها النواصى . وما فعله الامبراطور فرديناند الثانى وهو من أسرة هبسبرج حين حاول أن يستأصل شأفة البروتسينتية فى المانيا ، فأرسلها اليها جيوشه اللجبة ، التى أخذت تعمل السيف فى الرقاب والعباد ، والنهب فى البلاد ، واختل الأمن ، فأبيحت الأعراض ، وأزهقت النفوس البريئة ، وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الالمانية ، وتناقص عدد السكان فيها ، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر مليونا .

. . . . .

ولم نذهب بعيدا وفى الأمس تراجع البابا تلك الذكريات المؤلمة ، فيبكى وينتحب لها ، لأن أهل رومية قد أقاموا (ابرونو الايطالى) الذى أحرقته محاكم التفتيش بالقار والقطران ، فى

حفل رائع من رجال الاكليروس ، تمثالا عظيما فى المكان الذى أحرق فيه ضحية لتزمت العصر ، وكفارة عن حرية الفكر .

ولم تكن البروتسنتية على حداثة عهدها لتختلف عن الكاثوليكية بشىء من حيث تفتيش الضمائر ومخبآت الصدور ، واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حينا وبالحرق أحيانا ، فتلك النيران المخيفة التى التهمت جثة (سرفيتوس الاسبانى) ما يزال مشهدها ماثلا أمام عينى كلفن وهو فى جدثه ، وما تزال تلك الذكرى تنتاش جثته الهامدة ورمته البالية .

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقا كثيرا من ذوى الحرية الفكرية على حين كان الاسلام على درجة بعيدة من التسامح ولنا من أبى العلاء المعرى أكبر دليل على ذلك ، فقد شك هذا الفيلسوف العظيم فى جميع الأديان ، واتهم بالكفر والالحاد ، ومع كل ذلك فقد عاش آمنا مطمئنا على حياته ، ولم ينله من الحكومات الاسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى فى كفره وشكه لدرجة تكفى للحكم عليه بالقتل والحرق .

ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية منها تأمر بالخير والاحسان وأن المسيحية لم تبح سفك الدماء واضطهاد الأبرياء ، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه النفوس البريئة باسمها . وذلك ارضاء للنفوس الدنيئة ، والأطماع السافلة .

لقد قام الاسلام يدعو الى التوحيـــد ، فأعطى أهل الـــكتاب الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم ، ولم يعمد الى السيف فى اخضاع المشركين وردهم الى حظيرة الايمان بالله الا اذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة ، والموعظة الحسنة ، واختاروا الحرب .

أفبعد هذا يزعمون أن الاسلام دين كاذب .. ليت شعرى ، أية كذبة تماشى العصر ، وتســاير الزمن ، وتعيش مــع الدهر ــ بين الخصوم ــ أكثر من أربعة عشر قرنا ، وتنطلى تمويهاتها على حوالى ستمائة مليون من الناس ، وتظل عندهم طيلة هــذه الأحقاب موضع الاجلال والاكبار ، تهز قلوبهم الرحمة وأكفهم للخير .

ألا ان الاسلام برىء مما نسب اليه ، فهو دين عربى صادق يدعــو الى توحيــد الله دون أن يلجأ الى التــواء المنطق وغث التأويل . (ولئن فاتنى حظى من النسب ، لن يفوتنى حظى من المعرفة) .

خليل جمعة الطوال

المقال الثانى

مهداة الى الاستاذ خليل جمعة الطوال

ان من الجناية على الحق ، والافتراء على التاريخ ، أن يقول قائل ان الاســلام قــد انتشر بالسيف • أى سيف كان يحمله محمد ، وهو الاعزل الذى لا حول له ولا قوة ، الوحيــد الذى لا ناصر له ولا معين ، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته الى يثرب •

لقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يكن له من ســلاح غير ثقته بالله وايمانه بأنه على حق ، ولقد لاقى هو وأصحابه فى سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه الا الذين عمــرت قلوبهم بالايمــان ، واســتيقنت أنفسهم من نصر الله •

كان الرسول يوما يصلى عند الكعبة ، وبينما هو ساجد اذا بعقبة بن أبى معيط ، يطأ عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان

وخنقه بردائه خنقا شديدا ، والناس من حوله شـامتون ، حتى أقبل أبو بكر محتـدا وخلص الرسول منه وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .

ولما خرج الى الطائف يدعو أهلها الى الاسلام ، أغـروا به سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى تخضبت قدماه بالدماء .

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه اليهم ليقتلوه تعاهدوا على مقاطعة أوليائه من بنى هاشم ، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين لقى فيها هذا البيت الكريم من العنت والارهاق أعظم البلاء .

وعذب عمار بن ياسر وأهله عذابا شديدا ، فكان الرسـول يمر بهم وهم فى العذاب ويقول : صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة .

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقضى عليها فشكا عمار ذلك الى الرسول قائلا : يارسول الله ، بلغ منا العذاب كل مبلغ . فقال صلى الله عليه وسلم : (اصبر أبا يقظان ، اللهم لاتعذب من آل ياسر أحدا بالنار) .

وقد استشهد أفراد هذه الاسرة الكريمة فى سبيل الله ، ولم يبق منهم الا عمار الذى كان يعذب حتى لا يعى ما يقول .

وممن عذب فى سبيل العقيـدة بلال بن رباح كان مملوكا لأمية بن خلف ، فلما اعتنق الاسـلام حنق عليه سـيده وأمره

بالرجوع الى عبادة الأصنام ، فلم ينصع لأمره لأنه ذاق حلاوة الايمان ، فأنزل به ألوانا من العذاب : كان يطرحه على الرمضاء ، ويصهر على صدره دروع الحديد ، ويضع عليه الاحجار الثقيلة حتى قد ظهره . وهو يهتف دائما : أحد ، أحد ، الى أن أنقذه أبو بكر فاشتراه من سيده ، وأعتقه لوجه الله .

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد فى مبدأ بعثته ، كانوا يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم ، حتى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن يفر بدينه الى الحبشة ، فهاجر اليها جم غفير . واستأذن أبو بكر فى الهجرة اليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما كان على مسيرة يومين ، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله : أين تريد يا أبا بكر . قال أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، قال : ان مثلك لا ينبغى أن يخرج أو يخرج من أرضه ، ثم رجع به الى قريش وأدخله فى جواره ، على شرط أن يعبد الله .

فابتنى أبو بكر مسجدا بفناء منزله ، وصار يصلى فيه ويتلو كتاب الله ، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره ، يستمعون لتلاوته ، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته . ففزع القوم وشكوا أبا بكر الى حليفه ، فأغلظ الحليف لأبى بكر فى القول وقال له : اما أن تستعلن بعبادتك ، واما أن تعيد الى ذمتى فقال أبو بكر : انى أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد . أبالسيف وهو أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه . ومتى كان السيف وسيلة لتكوين العقائد فى النفوس ؟ .

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة فى سبيل دعوته ؟ . أطمعا فى مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئا . ومتى كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والافهام ؟ .

كلا ، لا بهذا ولا بذاك ، وانما بهذا الدين الحنيف الذى استحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين سمعه ملأ الحبشة من القسس والرهبان خشعت قلوبهم وفاضت أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ، حتى اذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعا عن النفس وذبا عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » .

كان موقف الاسلام اذن موقفا سلميا فى حروبه الأولى ، لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المعتدين . فلما استقرت قواعده ، وانتهت اليه الخلافة فى الأرض ، كان عليه أن يقف موقفا ايجابيا لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا ما تشير اليه الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وهذا يدل على أن الحرب فى الاسلام وسيلة لدرء المفاسد واقرار السلام ، لا ارضاء لشهوة الفتح والاستعباد واذا كان الاسلام قد حث على الاستعداد الحربى بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فانما يرمى بذلك لاطفاء جذوة الحرب فى نفوس الأعداء ، وهو ما يعرف فى هذا العصر بالتسلح السلمى .

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته واحسانه انظر اليه يأمر بالسلم اذا جنح اليها العدو ، ولو كان جنوحه خداعا ومخاتلة : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

وما تم فى معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على السلم وكراهية الحرب ، فقد رضى أن توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، فى الوقت الذى كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة واحدة ، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث ينتصفون لأنفسهم وللاسلام من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلا بينهم وبين ما يشتهون ، حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم .

وكان الرسول يوصى اتباعه دائما فى الحروب بقوله : (اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ، ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء) .

هذه مبادىء الاسلام فى الحرب ، وهى أرحم بالانسانية وأشرف غاية من المبادىء السلمية — ولا أقول الحربية — التى تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية فى هذا العصر .

واليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ، ومكنه الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فاما موت واما حياة . فقال لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ . قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ

كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فكان ذلك سببا فى اســلام قريش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين .

فالقول اذن بان الاسلام انتشر بالسيف فــرية باطلة ، وانما انتشر الاسلام بالحجة والبرهان ، وبسماحة مبادئه ومتانة أصوله ولا عجب فهو الذى يقول : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

محمد كامل حته

درس في السياسة من آيات القرآن

يقول بعضهم ان السياسة خداع واحتيال ، وانها اتخاذ السبيل الى الكسب من أى طريق كان ، والظفر بتغليب الرأى من حيثما اتفق ، وقالوا انها أكثر من ذلك امعانا فى الكذب الصراح ، وقالوا فيها أقوالا كثيرة وخطيرة لا حاجة الى استعراضها ويكفى أن نذكر قول الشاعر المصرى حافظ ابراهيم يصف السياسة مخاطبا أحد الزعماء وهو فى طريق المفاوضة :

ان مثلوا فدع الخيال فانه
عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عرف السياسة فرسخ
واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم
معنى يقال بأنه معقول

الى آخر الأقوال الواردة فى هذا الموضوع . والواقع المشاهد انه كم من عقود مبرمة نقضت بين السياسيين ، وكم من اتفاقات معمول بها فى عرفهم واذا بها بين عشية وضحاها « قصاصة ورق » كما تسميها لغة القوة أو لغة السياسة .

الى هؤلاء نسوق الحديث ، ونقول ليتهم فقهوا من القرآن الكريم الآية العظيمة المحكمة البينة التى نذكرها فيما يلى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

وظاهر الآية صريح النص فى أمره تعالى بالوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الايمان المؤكدة ، وتبغيض الغدر والنكث ، وقد وردت أحاديث لا تحصى فى هذا المعنى ، ثم ضرب الله مثلا لنقض العهود والمواثيق بالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، ثم اتخاذ الايمان وسيلة للخداع والكذب والغش — تتخذون أيمانكم دخلا بينكم — أن تكون أمة أربى من أمة ، وهذا هو المعنى السياسى الذى نقصد الاشارة اليه ، وهو ما يقع بين الأمم فى العصور الأخيرة من ضروب الخديعة حين تكون أمة أربى — آكثر — من أمة .

وخلاصة ما نريد أن نشير اليه فى هذا الباب ، هو هذا الدرس الاخلاقى السياسى العظيم الذى ضربه الله لعباده لأنه يشتمل على صورة للمثل النبيل فى السياسة الصادقة التى توفر على الأمم سعادتها وتضمن لها هناءها ، والا فما هى قيمة

العهود والمواثيق اذا كانت لا تســاوى ما خطت به من مـــداد ونقشت عليه من ورق ، وما هو الحاجز الذى يحتجز الأطماع بين القوى والضعيف ، اذا كانت الايمان دخلا بين الناس أن تكون أمة أربى من أمة •

وليست بنا حاجة الى استعراض ما تعانيه الأمم الحاضرة فى كل أصقاع الأرض من ضروب العسف ونقض العهــود ونكث الاتفاقات مما هو شائع معروف ، وما تأدت اليه هذه الحالات من مخاصمات ومشــاحنات ، كاد يمتشق فيها الحسام ويثــور فيها الرصاص •

فهلا تدبر الناس فى كلام ربهم وانتفعوا بما فيه من عظات وعبر وما رسمه لهم فى حياتهم الدنيوية من سعادة وهناء •

الباب السابع
في الشئون الاقتصادية

١ ـــ النهى عن التعامل بالربا

٢ ـــ حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات •

٣ ـــ المشاكل القضائية بين المتقاضين

النهى عن التعـــامل بالربا المضــاعف

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » •

وقد جاء فى تفسير هذه الآية ما يأتى :

« يقول الله ناهيــا عبــاده المؤمنين ، عن تعاطى الربا وأكله اضعافا مضاعفة ، كما كانوا فى الجاهلية يقولون اذا حل أجــل الدين اما أن تقضى واما أن تربى ، فان قضاه والا زاده فى المدة وزاده الآخر فى القدر ، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليــل حتى يصير كثيرا مضاعفا ، وأمر الله عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى والأخرى » •

قلنا : هذا الذى عابه الله على المرابين من جاهلية العــرب ، فى كونهم يفعلون الربا المضاعف ، ثم نهاهم عنه وحرمه عليهم ، هو بعينه الذى يفعله كثير من كبراء الأمم فى العالم اليوم ، فان كثيرا من المعاملات المادية من تجارية ومالية وغيره لا تقوم الاعلى هذا الربا المضاعف •

والواقع أن مشكلة التعامل بالربا بين الأمم والأفراد ، وعلى الأخص الربا المضاعف ، هى من المشاكل الرئيسية بالنسبةللمجتمع الانسانى حيث كان ٠ وذلك برغم اصطلاح القوانين الوضعية على تنظيم الربا واباحته فى أغلب أمم الأرض ، والأمثلة على ذلك من الكثرة بحيث لا تحصى ، ومن الأدلة على فساد فكرة الربا وكونها من السبل المؤدية بكثير من المتعاملين بها الى الخراب العاجل أى الى العقاب الدنيوى ، ان كل الأمم التى أباحت الربا حددت التعامل به فى دائرة ضيقة منظمة وما وضعت ذلكالتحديد الا لتدرأ عن أفرادها بعض الاضرار الجسيمة التى تنتج عنه ، ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تدفع الأذى الكامل الذى يحيق بالناس من التعامل به ، وكثيرا ما تنشغل المحاكم وينشغل القضاة بالنظر فى مشاكل المتعاملين بالربا وعلى الأخص الربا الفاحش الذى تحظره كل الأمم التى أباحت قوانينها الوضعية التعامل بالربا فى الحدود الضيقة التى أشرنا اليها ٠

وفى الواقع أن الربا يجب أن يحرم وأن يمنع قطعا طبقا لما أمر به القرآن الكريم ، والأمة التى تفعل ذلك ، انما تسدى يد الاحسان الى مجتمعها بما تدرأ عنه من الأذى الذى لا يقف ضرره عند حد بين الأفراد والجماعات ، لأن كثيرا من النفوس الانسانية لا يقف بها الجشع عند حد معين خصوصا تلكالنفوس التى غلب عليها الطمع والشح ٠

فصاحب المال ، يستغل ضعف المحتاج أسوأ استغلال ، ويتعمد أن لا يقرضه الا بذلك الربا الباهظ . وشره النفس كما قلنا لا يقف عند حد ، فيترتب على ذلك أن يزداد الدائن جشعا فيزيد الربا حيث ينصاع المدين بتأثير الضعف النفسى ، حتى اذا ما حان وقت السداد كانت هناك ترة مؤكدة فى النفس بين الفريقين ، فهذا يريد ان يشبع نهمه بتحصيل ما يدعيه وذلك يشعر اذ ذاك فقط بغبنه وخسران صفقته بأخذه ذلك القليل بما صار اليه من الكثرة فيشعر فى قرارة نفسه بالحقد والضغينة على دائنه الاثيم .

وليس أحسن فى هذه الحالة من المعاملة البريئة التى يقصد بها مجرد وجه الله ، فمن كان ذا مقدرة وميسرة وطلب اليه القرض البرىء الى أجل وميسرة فله ذاك ، ومن كان لا يستطيع فما عليه من المعذرة بالتى هى أحسن .

أما ما عدا ذاك فسبيل شائك يؤدى الى الخسران والى ضياع الحقوق واشعال العداوة والبغضاء بين النفوس والقلوب ، فيما لا طائل تحته ولا غنية وراءه ، والله وراء القصد .

ولقد اكتفينا بهذه الآية من القرآن فى حق الربا حيث وردت آيات كثيرة لا تعد فى هذا الموضوع ، كلها آيات بينات .

حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات

سنذكر فى هذا الباب ، أطـول آية فى القـرآن نزلت فى حفظ الحقوق بين الأفراد والجماعات . وقد رسمت تلك الآية الحكيمة ، الطريق السـوى الذى يجب أن يتبعه الجميـع فى معاملاتهم ، لينتفعوا من وراء ذلك بجملة أشياء ، وليدفعوا عن أنفسهم عناء الشر والتقاضى فيما لا طائل تحته . أجـل لينتفعوا بحفظ حقوقهم فى معامـلاتهم التى لا بد منها ، وليـدفعوا عن أنفسهم شر التقاضى وما يفضى اليه من خصومة وضغن ، وترة ودخل .

ولقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآية التى قلنا أنها أطول آية فيه ، بأدق مثل كريم ، لأدق مشكلة من مشاكل البشر ، اذ هى ضمنت حقوقهم المالية ، والمسائل المالية فى القديم والحديث، هى مشكلة المشاكل فى حياة الناس سواء كانوا أفرادا أوجماعات فأما الأفراد فكثيرا ما تنشأ بينهم العداوات وتشـيع البغضاء بل ولا نذهب مذهب الغلو اذا قلنا ، وترتكب الجنايات والجرائم ، من أجل مسألة مالية أو معاملة تجارية ، والجماعات كثيرا تتوتر

منهم النفوس وقد تنشب الحروب وتقطع أواصر الصلات ، من أجل مسائل مالية أو مشكلة من مشـاكل التعامل . لهذا فقـد عنيت آية القرآن الكريم بتفصيل هذه المسألة تفصيلا دقيقا كما تصف الداء وتصف معه الدواء ، بما لم يترك عذرا لمهمل يضيع من حقه ثم ينشده ويبكى عليه ، أو يضيع حقه ثم يثير من أجله حربا عوانا لا أول لها ولا آخر .

يقول القرآن الكريم فى الآية المذكورة :

« يا أيها الذين آمنـوا اذا تداينتم بدين الى أجـل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعـدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضـون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لاترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بـكل شىء عليم » .

أجل . لو قرأ الناس هذه الآية الكريمة من القرآن وتنبهوا اليها وفطنوا الى ما فيها من حكمة سامية وعملوا بها . انهم لو فعلوا ذلك لأقفلت دور التقاضى أبوابها بين عشية وضحاها ولاستراح الناس واستراح القاضى . والا فماذا يفعل القضاء فى الأمم الحاضرة أكثر من انشغاله بدعاوى الحقوق المدنية حيث أهمل الناس أمور دينهم وتعاليمه واتبعوا شهوات الدنيا وماتزينه من الباطل والبهتان والزور .

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة عشر مسائل ، كل مسألةمنها مشكلة من مشاكل المجتمع الانسانى فى كل مكان وكل زمان . واننا لنذكر بالايجاز تفصيل تلك المسائل التى أرشدت اليهاالآية وأوجبتها أو نهت عنها ، صونا للمصلحة العامة بين الأفراد والجماعات .

أولا — تقول الآية « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » فهذا أمر للناس بكتابة ما يتقارضون من الحقوق حفظا لها « وأدنى الا ترتابوا » كما جاء فى آخر الآية وصونا للنفوس من نزعات الشيطان وما يوسوس به للنفس الأمارة بالسوء من تزيين الباطل بجحود الحق أو المماطلة فيه .

ثانيا — « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » وهذا أمر لمن يتولى الكتابة بين ذوى الحقوق أن يكون مقسطا فى كتابته فقد يكون الطرفان جاهلين أو أميين أو أحدهما كذلك والآخر متعلم،

والأمر فى هذه الحالة متعلق بذمة الكاتب وضميره فلا يخون أحدهما الآخر ، ولا يكون مع فريق دون فريق •

ثالثا — « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » اذ أن كثيرا من الناس الذين يحسنون الكتابة ، حين تسألهم أن يكتبوا لك شيئا وأنت أمى جاهل ، يعتذرون بالجهل وعدم المعرفة وهم كاذبون ، وذلك شىء مشاهد ملموس ، فهذا الأمر لهم بأن لا يكتموا نعمة الله عليهم وان لا يتأبوا الكتابة لمن لا يعرفها منتحلين ذلك الادعاء الكاذب •

رابعا — « وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئا » وهذا أمر للمدين أن يملل الحق الذى عليه ويقرره على صحته فلا يبخس صاحبه شيئا وان يتقى الله ربه فى ذلك •

خامسا — « فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل » وهذا أمر على ولى المدين أن يقرر الحق الذى هو فى ذمة صاحب الولاية عليه اذا كان ذلك مجنونا أو معتوها أو ضعيفا ، وان يقرره بالعدل من غير بخس •

سادسا — « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » وهذا أمر صريح بضرورة الاستشهاد فى مثل تلك الأحوال ، ولا تنكر قيمة الشهادة ونفعها وقد أفسح الله لعباده فجعل الشهادة برجلين فاذا لم يتيسر فبرجل وامرأتين اذ أن المرأتين تقومان مقام الرجل فى الدين الاسلامى فى حالتى

الاستشهاد والتوريث والحكمة فى ذلك ظاهرة أجل من أن تخفى وقد ذكرتها الآية فى قوله تعالى وذلك أن تضـل ـ تنسى ـ احداهما فتذكر احداهما الأخرى وذلك لما هو معروف عن طبيعة المرأة وضعفها عن الرجل ، على أن النقطة الجديرة بالملاحظة هنا، هى أن الذى يقرر هذا الكلام فى حق المرأة ، هو الخالق العظيم الذى خلق الجنسين من ذكر وانثى ، والذى هو أعلم بسرماخلق وبطبيعة خلقه فلا داعى لفضول المتحذلقين الذين يقولون بمساواة المرأة بالرجل فى جميع المهن والأعمال •

سابعا ـ « ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » وهذا أمر صريح لمن يتولون الشهادة بين طرفين دائن ومدين ، أن لا يتقاعسوا عن تلبية أداء واجب الشهادة اذا ما دعوا الى أدائها اقـرارا للحق وصونا لحقوق الناس وهـو أمر له قيمته وخطـره فى حض من يتولون الشهادة على عدم الاحجام والمبادرة الى تقرير مايعلمون، وقد جاء فى حق الشهادة آية أخـرى فى غير هذا المـكان من القرآن نعرض لها فى محلها ان شاء الله •

ثامنا ـ « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينـكم فليس عليكم جنـاح الا تكتبوها » وهذا أمر كريم فيه نهاية الارشاد والسداد ، اذيقول سبحانه وتعالى لا تسأموا ولا تستهينوا أن تكتبوا أى شىء قل أو كثر دفعا للريبة فيما بينـكم ودفعا لما يترتب عـلى الريبة من

مخاصمات وشحناء وبغضاء ومقاضاة الا اذا كانت المعاملات مقبوضة ليس فيها نسيء ، فهى فى هذه الحالة لا يضر فيها عدم الكتابة وذلك هو أعدل لكم وأصلح ، وهذه الفقرة من الآية جمعت اسمى معانى الاخلاص وحب الله لعباده حين يرشدهم الى تجنب أبسط ما ينتج منه الضرر لهم •

تاسعا — « وأشهدوا اذا تبايعتم » وهذا أمر من الله لعباده بأن يستشهدوا على ما يتبايعون منعا لما قد يقع بين طرفى البائع والمشترى فى مستقبل أمرهم من ظنة أو نكران أو جحود تؤدى بهما الى المخاصمة أو الشر •

عاشرا — « ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » أى اذا كان الكاتب أو الشاهد على حاجة أو معذرة وهما فى هذه الحالة من خدام الانسانية والحق ، فلا تجب مضارتهما أو اكراههما على مالا يستطيعان ، وقد قضت حكمة الله أن يدفع عن الكاتب والشهيد هذه المضارة فى مقابلة ما أمرهما به فى مقدمة هذه الآية من الامتثال فى قوله « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » وفى آية أخرى تحض على عدم كتمان الشهادة •

وفيما يلى نذكر بعض الأحاديث التى تؤيد ما جاء فى هذه الآية •

ففى الحديث من رواية سفيان بن عيينة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم وأجل معلوم) وفى حديث آخر (من كتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) .

وقد وردت أحاديث كثيرة في مثل هذه المعانى كما وردت أقوال قيمة لطائفة من أئمة السلف الصالح ، وحسبنا الاشارة اليها اذ شرحنا معنى الآية القرآنية التى هى ليست فى حاجة الى وضوح وليس فيها من ابهام .

ونرى قبل أن نختم هذا الباب أن نذكر آية أخرى من القرآن الكريم هى تتمة لهذا الكلام وللآية التى سبقتها وهى قوله تعالى :

« وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » .

وهذه الآية كما قلنا ، هى تتمة لما سبق الكلام عليه ، فاذا كان المتداينان على سفر ولم يجدا كاتبا يكتب لهما أو وجدا الكاتب وتعذرت أسباب الكتابة أو ما الى ذلك من الأحوال ، فرهان مقبوضة . فاذا توفرت الثقة بالأمانة بين الطرفين لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد الحرج على عباده فيكفى تلك الثقة أن تقوم مقام الكتابة والشهادة وانما على المؤتمن أن يؤدى أمانته

وهذا أمر عليه من الله ومع هذا فالله سبحانه وتعالى الذى هو أعلم ببصير العباد وبدخيلة نفوسهم وخائنات صدورهم قدم الكلام فى الآية الكبرى فقال : ذلكم أقسط عند اللهوأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا . فهو خير عباده فى تصرفهم بعد أن قدم لهم أخلص معانى النصح والارشاد وأسماها .

أما قوله ولا تكتموا الشهادة أى لا تخفوها ولا تجحدوها ، فقد قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائروكتمانها كذلك . أى أن شهادة الزور تعادل كتمان الشهادة ، وفى هذا ابلاغ ومن يكتمها فانه آثم قلبه أى فاجر مذنب ، وهذا كقوله تعالى « ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » وهكذا قال هنا « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » .

فمن هذه الآيات المحكمة التى تحض على اداء الشهادة وعدم كتمانها ودفع التهيب فى ادائها مهما كان موضوعها وموضوع الذين يدخلون تحت طائلتها ، ندرك مقدار السعادة الآلهية التى رسمها الله لعباده بتقرير كل ما يتعلق بأدق شئون معاملاتهم فى حياتهم الدنيوية فيما بينهم وبين بعضهم سواء كانوا أفرادا أو جماعات ، والله بصير بعباده .

المشاكل القضائية فى المحاكم

وبين المتقاضين

ومن الظواهر الاجتماعية فى كل بلد بل فى كل بقعة من بقاع العالم ، وفى كل زمان من الأزمنة ، وقوع المشاكل بين المتقاضين بحيث تغص المحاكم ودور الحكومات ، بهذا النوع من الخصومات ونعنى به التقاضى فى الخصومات المدنية والحقوق ، والمسألة فى هذه الحالة لا تتجاوز أحد أمرين بحال من الأحوال : وهى اما أن يكون هذا الخصم محقا فى دعواه والآخر مبطلا ، وأما أن يكون العكس فى حين أن كل واحد من الطرفين المتقاضيين يزعم لنفسه الحق ، ويدعى أنه فى جانبه ، وقديما قال الشاعر :

لو أنصف الناس استراح القاضى
وبات كل عن أخيه راض

فلو أنصف الخصمان المتقاضيان ، لكانت منهم الحكومة العادلة والقول الفصل ، ولاستراح القاضى كما قال الشاعر .

والمشاهد الملموس أن الخصومة بين المتقاضيين لا تقف عند حدهما ولا تقتصر عليهما ، خصوصا فى البلدان الراقية حيث ،

يعمد كل فريق الى انابة شخص يدافع عنه وهو المعروف بالمحامى فى الاصطلاح العام • ومما لا شك فيه أن كل محام فى طـرفى الخصـومة انما يمثل رأى موكله ، ولا شك أن أحـد الطـرفين المتقاضيين على حق والآخر عـلى باطل ، فيترتب عـلى ذلك أن يكون أحد المدافعين يدافع عن حق والآخر يدافع عن باطل وتلك نتيجة معقولة لهـذا المنطق المرتب ، لا تنيجة له سواها فما هـو المعنى المستفاد من حالة كهذه •

لا شك أن هذه مشكلة اجتماعية كبرى لها خطورتها فى حياة الأمم وأخلاقها ، ويمكن للقارىء أن يذهب مع الخيال قليـلا ، فيتصور لو أن المجتمع الانسانى خلا من مشكلة كهذه تعتبر من أمهات المشاكل التى تقض مضاجـع الملايين من بنى الانسـان ، كلما أشرقت شمس أو غرب نهار •

والقرآن الـكريم عافاك الله ، واجه هـذه المعضلة مواجهة صريحة ، وحلها حلا صريحا حبذا لو فقه له المسلمون ، وتنبه اليه المؤمنون ، لتلمسوا معنى من معانى السعادة الحقيقية ولارتاحوا الراحة الكبرى ولكن هيهات •

جاء فى القرآن الكريم ، فى هذا الموضوع ما يأتى :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » •

والآية الشريفة ، واضحة التفسير ، بينة المرمى ، وقد قال المفسرون فى شرحها أقوالا كثيرة ، نجتزىء ببعضها فيما يلى :

عن ابن عباس : هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال جمهرة من السلف الصالح : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم ، واتماما للفائدة نذكر أن قضاء القاضى فى هذه الحالة لا يعتبر حجة تسيغ للظالم ابتلاع حق المظلوم ، وانما هو مجرد حكم دنيوى أداه اليه اجتهاده فيما مثل أمامه من أدلة ان صحيحة وان زائفة ، فلا يعفيه ذلك من عذاب الله ، وان سوغ له فى الظاهر الاستيلاء على حق غيره والاعتداء على مال سواه .

وتأييدا لذلك نذكر أنه ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (انما أنا بشر وانما يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها) .

والمشاهد الملموس فى كل بيئة وكل مجتمع ، أن الناس كثيرا ما يتخاصمون من أجل المعاملات المادية ، وتختلف الحالات عن بعضها من ناحية وجود الاثبات والمستندات أحيانا ، والاعتماد على الذمة والشرف أحيانا أخرى ، فتكون النتيجة المحتمة ، هى الادلاء بالأموال الى الحكام ، والحاكم يقضى فى حكومته بما

يراه أمامه من أدلة الاثبات والنفى ، ولابد أن يقف أحد المتقاضيين فى موقف الصادق والآخر فى موقف الكاذب ، خصوصا مايجره المتقاضيان فى سبيل تأييد دعواهما أحيانا من شـهادة الزور وما اليها حيث تتضاعف الآثام وترتكب الجرائم .

ذلك هو سر قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحـكام لتأكلوا فريقا من أموال النـاس بالاثم وانتم تعلمون » .

وليتصور القارىء مايقع أحيانا من الجرائم الدموية والاصابات فى الأنفس من جراء حـالات كهذه مشاهدة ملموسـة ، تتناقل الصحف أنباءها وتتجاوب صداها فى كل بقاع العالم .

ليتأمل القارىء ، وليتدبر .

الباب الثامن

فصول متفرقة في الشئون العامة

١ — الشعر والشعراء فى رأى القرآن .

٢ — مجموعة من المواعظ والأحكام .

حكم القرآن فى الشعر والشعراء

كثرت أقوال الناس فى الشعر والشعراء ، وفى النص الوارد فى القرآن بشأنهم ، واختلفت هذه الأقوال ايما اختلاف ، فأحل الشعر بعضهم ، وحرمه آخرون ، ويدللون لك على هـذا بقوله تعالى فى القرآن « والشعراء يتبعهم الغاوون » ويقفون بك عند هذا الحد من الآية ، وذلك على غـرار ذلك الذى يقـول لك : « يا أيها الذين آمنـوا لا تقربوا الصـلاة » . ثم يقف فيعكس المعنى المطلوب .

وقد حملتنى هذه النظرة على تتبع ما جاء فى القرآن الكريم عن الشعر ، وعما ورد فيه من الأحاديث وأقوال المفسرين،فخلصت من ذلك الى النتيجة الآتية :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر أنهم فى كل واديهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وهذه الآية صريحة المعنى واضحة الغرض ، ولكن اليك أقوال المفسرين الثقاة فى موضعها .

جاء فى تفسير الشيخ ابن كثير ما نصه :

كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس ، فانزل الله تعالى الآية .

وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة عن ابى سعيد ، قال بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج اذ عرض شاعر ينشد ، فقال صلى الله عليه وسلم (خذوا الشيطان ، لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىءشعرا) .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى كل واد يهيمون ، أى فى كل لغو يخوضون ، وقال الضحاك فى كل فن من فنون الكلام وكذا قال مجاهد وغيره . فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ،ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر بما يوجب حدا هل يقام عليه الحد بهذاالاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون مالايفعلون على قولين .

وقد ذكر محمد بن اسحاق ومحمد بن سعد فى الطبقات والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر ، فقال :

الا هل أتى الحسناء ان خليلها

بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

اذا شئت غنتنى دهـاقين قـرية

ورقاصة تحدو على كل مبسم

فان كنت ندمانى فبالاكبر اسقنى

ولا تسقنى بالاصـغر المتلثم

لعل أميـر المؤمنين يسـوءه

تنادمنـا بالجـوسق المتهـدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أى والله ليسوءنى ذلك ، من لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، وكتب اليه خطابا بعزله ، فلما قدم الى عمر بكته بهذا الشعرفقال والله ياأمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر الا شىءطفح على لسانى ، فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لى عملاأبدا وقد قلت ما قلت . والمراد بهذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ، لأن حاله منافية لحالهم من وجوه كثيرة كما قال تعالى « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنـون ، ولا بقول كاهن قليـلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » .

وقال محمـد بن اسحاق عن ابن أبى عبـد الله مولى تميم الدارى قال لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء ، فتلا النبى صلى الله عليه وسلم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » قال : أنتم ، وذكروا الله كثيرا قال أنتم ، وانتصروا من بعد ما ظلمــوا قال أنتم رواه ابن ابى حاتم وابن جــرير من رواية ابن اسحاق . وقد وردت أحاديث متشابهة فى هذا المعنى.

وجاء فى تفسير قوله تعالى « وانتصروا من بعد ما ظلموا » قال ابن عباس يردون به على الذين كانوا يهجون به المسلمين وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان ابن ثابت (أهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك » وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرازق عن عبد الرحمن ين كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد أنزل فى الشعراء ما أنزل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل » .

النتيجـــة

والنتيجة المستـفادة من معنى الآية الشريفة ، ومن الأحاديث النبوية الكريمة ، ومن أقوال المفسرين ، هى أن الشعر مثله مثل غيره من الأعمال يثاب المرء على الصالح منها ، ويعاقب على المسىء فيها ، وهذا هو القانون الطبيعى لكل أمر ، اذ أنه يحتمل الوجهين وجه الخير ووجه الشر ، فالشعر الذى يحتمل ناحية الخير هـو الشعر المباح ، والذى يحتمل ناحية الشر هو المحظور .

وجاء فى تفسير الشيخ البغوى لهذه الآية ما نصه :

قال أهل التفسير : أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجـون النبى صلى الله عليه وسـلم وذكر مقاتل أسماءهم ممـا لا داعى لسرده هنا ، ويتبعهم الغاوون يقصد الرواة الذين كانوا يجتمعون لسماع ذلك الهجو ويتناقلونه فى كل مكان وورد عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عمرة القضاة وابن رواحه يمشى بين يديه ويقول :

خلوا بني الـكفار عن سـبيله
اليـوم نضربـكم عـلى تنزيله

ضربا يزيل الهـام عن مقيـله
ويذهـل الخليـل عن خليـله

فقال له عمر يا ابن رواحه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (خل عنه يا عمر فلهى أسرع فيهم من نضح النبل) •

وروى من طريق عبد الواحد المليجى بسنده الى عـدى انه سمع البراء قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم لحسان : (اهجهم — أو هاجمهم وجبريل معك) وورد عن عائشة أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ويقول الرسول (ان الله يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله) وورد عن عائشة انها قالت (الشـعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الشعر لحـكمة ، وقال الشعبى كان أبو بكر رضى الله عنه يقول الشعر وكان عمر رضى الله عنه يقول الشعر ، وكان على رضى الله عنه أشعر الثلاثة وروى عن ابن عبـاس رضى الله عنهما أنه كان ينشـد الشعر فى المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبى ربيعـة المخزومى فاستنشده القصيدة التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشده ابن ربيعة القصيدة الى آخرها .

وورد عن عائشة انها قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل ، فأرسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل الى كعب بن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الأسد الضارب بذنبه ، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال (والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الاديم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعجل فانأبا بكر أعلم قريش بأنسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبى فأتاه حسان ثم رجع فقال يارسول الله قد خلص لى نسبك والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، وقال :

هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله فى ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا
رسول الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم
ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء

وفى تفسير هذا التحديد ، نستخرج الطريق السوى الذى رسمه القرآن الكريم للصورة التى يجب أن يكون عليها الشاعر الاسلامى وللمواضيع التى يجوز له أن يطرقها ، ومفهوم أن المقصود من ذلك العمل على ما فيه مكارم الأخلاق وما يدعوا الى العمل الصالح ، وينهى عن السيئات ، أما الأبواب الأخرى التى تعود الشعراء أن يلجوا فيها ويخوضوا عباب تلك البحور السيحقة فمنهى عنه ومستقبح خصوصا ناحية المهاجاة والعياذ بالله والخوض فى الاعراض واتباع أرذل الكلام وأشنعه والسباب بالباطل والمديح الكاذب والنفاق والمراءاة والهيام فى كل ذلك هو المشنوء فى نص القرآن وهو ما يتنافى مع كرامة الشعر والشعراء ، ومن يتبع ذلك فيكون قد حقت عليه الآية الكريمة فى شطرها الأول ، كما أن من يتجنب ذلك يكون من الذين اتصفوا بالشطر الثانى من تلك الآية .

فلنتخيل أن الشعراء اتبعوا نصيحة القرآن الشريف وعملوا بما جاء فى الآية التى نزلت فيهم فماذا نجد . نجد صورة رائعة للأدب العربى غير الصورة الموجودة اليوم ، أجل كنا نجد الأدب مرسوما فى غايته السامية خلوا من كل ذام ومستقبح ، أما ولم يفطن الكثير من الشعراء الى تلك الصورة التى رسمها القرآن الكريم للغاية السامية التى يجب أن يتبعوها ، فقد حقت عليهم كلمة الله ولا حول ولا قوة الا بالله الا من عصم ربك ، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

مجموعة من المواعظ والاحكام

ايتاء الحقوق الى مستحقيها — النهى عن التبذير — صرف المحتاجين عند المعذرة بالقول الحسن — النهى عن الشح والاسراف —

هذه آية واحدة من الآيات الكثيرة التى حفل القرآن الكريم بأمثالها وقد جمعت طائفة من الأحكام التى تكفل السعادة لأبناء المجتمع العالمى لو أنهم تفقهوها وتدبروا ما جاء فيها وعملوا به.

وهذا نص تلك الآية الحكيمة الجامعة :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ».

فأما الكلام على ايتاء الحقوق الى مستحقيها من ذوى القرابة والرحم ومن يليهم من المسكين وابن السبيل والسائل وما الى ذلك ، فقد تقدم القول عنه فى باب آخر من أبواب هذا الكتاب

فلا داعى الى تكرار الحديث بالتفصيل فيه وحسبنا الاشارة اليه لأن الآيات كثيرة وحفيلة بأمثال هذه المعانى النبيلة ، وتكرارها انما هو للمناسبات التى نزلت فيها ولانه يدل على مقدار النصح الالهى الكريم لعباده باتباع الطرق المؤدية الى سعادتهم فيما بينهم وتحملهم على تجنب كل ما يعود عليهم بالمضرة والخسران وتشتمل الآية على النهى عن التبذير ، والتبذير علة من علل المجتمع الانسانى لأنه داء عضال فى كثير من بنى الانسان ، يقابله داء الشح فى كثير من الناس ، وقد وردت الآيات الحكيمة كثيرة فى هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير الى قوله تعالى «والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » فكم من أسرة تشتت شملها ، وكم من بيوت خلت على عروشها وكم حوادث مؤلمة زلزلت كيان مجتمعات كثيرة سببها كلها واحد ، هو التبذير ، خصوصا اذا كان المبذر رب أسرة يعولها فاذا طاح عنها خلف لها الشقاء والبؤس ، وقد نهى الله عن التبذير وبغضه الى عباده أشد التبغيض حيث قرن المبذرين بأخوة الشيطان والعياذ بالله .

ومن المسائل التى حفلت بها هذه الآية الكريمة ، مسألة صرف المحتاج عند المعذرة بالقول الحسن ، فى قوله تعالى « واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا » أى اذا سألك أقاربك ومن أمرنالك باعطائهم وليس عندك شىء وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولا ميسورا ، أى عدهم وعدا بسهولة ولين ، وهكذا ورد فى تفسير ابن كثير

رواية عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ، وفى هذا من مكارم الأخلاق ما فيه لأن المشاهد أن كثيرا من الناس ، جلهم ان لم نقل كلهم يتقاعسون عن أداء مثل هذا الواجب الخطير ، ويا ليتهم حين يفعلون ذلك يصرفون الموضوع بالحسنى بل انهم يصرفونه بالشراسة وسوء الخلق .

فانظر الى أدب القرآن الحكيم كيف الزمنا بهذا الالزام حتى لا نجرح شعور غيرنا من المحتاجين والمعوزين فلا نقضى لهم حاجتهم ولا نحسن اليهم بالقول الحسن . وتشتمل الآية بعد ذلك على النهى عن الشح والاسراف ، فى قوله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » والنص واضح التفسير ، ولكننا نثبت فيما يلى أقوال المفسرين فيه .

يقول الله تعالى آمرا بالاقتصاد فى العيش ذاما للبخل ناهيا عن السرف « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » أى لا تكن بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئا ، « ولا تبسطها كل البسط » أى ولا تسرف فى الانفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك « فتقعد ملوما محسورا » وهذا من باب اللف والنشر فيقصد ان بخلت يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير :

ومن كان ذا مال فيبخل بماله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسيروهو الدابة التى عجزت عن السير فتوقفت ضعفاوعجزا فانها تسمى الحسير مأخوذ من الكلال كما قال تعالى « فارجع البصر هل ترى من فتور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » أى كليل •

وخلاصة معنى الآية هو النهى عن الشح الذى هو البخل والامساك عن ايتاء الحقوق لمستحقيها من الصدقات وغيرها من أنواع البر والمساعدات والنهى عن الاسراف الذى هو مدعاة الفقر والعجز والافلاس •

فليتأمل هذا النص الحكيم من ينشدون السعادة فى دنياهم فى ترتيب دخلهم وخرجهم ، وترتيب القيام بما هو مفروض عليهم نحو اخوانهم من ذوى قرباهم فى النسب والاسلام ، وبما هو مفروض عليهم نحو أنفسهم ، ونختم هذا الباب بالحديث النبوى الوارد فى الصحيحين الذى يقول : ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا : ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا •

الفهـرس

الموضـــوع	صفحة

الباب الأول
فى الشئون الأخلاقية
١٧ ـ ٣٦

الباب الثانى
فى الشئون الاجتماعية
٣٧ ـ ٦٠

تابع الفهرس

الموضـــوع — صفحة

الباب الثالث
فى الشئون الصحية
٦٠ ــ ٧٨

الباب الرابع
فى الآداب العامة
٧٩ ــ ٨٨

الباب الخامس
فى الشئون الخيرية والانسانية
٨٩ ــ ١٠٠

تابع الفهرس

الموضـــوع | صفحة

الباب السادس
فى فنون الحرب والقتال
١٠١ – ١٢٤

الباب السابع
فى الشئون الاقتصادية
١٢٥ – ١٤٢

الباب الثامن
فصول متفرقة فى الشئون العامة
١٤٣ – ١٥٦

(مطابع شركة الإعلانات الشرقية)